الأشرف قانصوه الغوري

بقلم
الدكتور محمود رزق سليم

توزيع

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة

تليفون : ٩٠٨٩٢٠ — ٩٠٥١٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تؤكد الأعوام المتتابعة والأزمان المتلاحقة ، عروبة مصر ، واصرارها على هذه العروبة بمعناها الأوسع .

ولسنا نعنى بعروبتها أنه يسكنها شعب أغلبه من الجنس العربى فحسب ، بل نعنى مفهوما أعم وأنبل . وذلك أن سكانها ، على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، يشعرون شعورا عميقا بارتباطهم أو بضرورة ارتباطهم ، ارتباطا وثيقا ، بجميع الأمصار العربية وشعوبها ، على اختلاف أجناسهم وأديانهم أيضا ، فى شتى نواحى الوطن العربى الكبير ، الممتد من الخليج الى المحيط . هذا الارتباط الذى يدعو اليه صالحها جميعا ، وتؤكده وحدة اللغة والثقافة والتفكير والاتصال الدائم الذى زاده التاريخ المشترك رسوخا وثباتا ، سواء أكان ذلك فى الماضى البعيد أم القريب ، وكذلك ضرورة تعاونها على دفع عدوها المشترك . الى غير ذلك من المفاهيم التى أصبحت واضحة المعالم ، بعد أن كشفتها وحددتها الثورة المصرية المجيدة ، وهى ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م .

ان من يعود الى دراسة التاريخ فى مصر الاسلامية ، يرى كثيرا من التصرفات ، وعديدا من الحوادث والوقائع والحروب ، تؤكد أن هذه المفاهيم ، هى مفاهيم الشـعب المصرى ، التى ملأت أحاسيسـه ومشاعره ، وسـاست أفكاره وخواطره ، ووجهت سياسته فى الداخل والخارج . واستوى فى ذلك حاكمه ومحكومه ، على وجه الاجمال ، وبرز الدين الاسلامى فكان أكبر دعائم هذه المفاهيم .

***

وورث الشعب المصرى فى عصر المماليـك « ٦٤٨ هـ — ٩٢٣ هـ » ، هذه النزعة ، حتى لقـد جرت من نفسـه مجرى الغريزة . فكانت قوام آماله ونظام رجاله .

وكان حكامه فى هـذه الحقبـة ، من الجنس التركى أو الچركسى ، فى جملتهم . وكانوا طارئين عليه من خارج حدوده ، بل ومن خارج الوطن العربى كله . وهم جماعة متجددة باطراد ، عن طريق الشراء من أسواق الرقيق ، مجلوبون من القوقاز أو أرمينيـة أو التركستان أو أواسط آسيا وجنـوب روسيا ، وغيرها .

ولكنهم بالاقامة والتوطن فى مصر ، اكتسبوا الصفة المصرية والعربية ، وباعدت الأيام مباعدة كاملة ، بينهم وبين أوطانهم ، بل بينهم وبين أهليهم وذويهم . ولم يعودوا يعرفون لهم وطنا غير مصر ، ولا أهلا غير أهلها .

ثم انهم حاربوا باسمها ، واكتسبوا المعارك لها ، ورفعوا وراء حدودها أعلامهـــا ، وحافظوا عليها امبراطورية واســعة الرقعة ممتدة المساحة ، تحتوى على أفضل أجزاء الوطن العربى الكبير ، اذ ذاك ـــ مصر والشام وحلب والحجاز واليمن وشمال الجزيرة الفراتية ، فى جملتها . فضلا عن امتدادها أحيانا الى غير ذلك .

وانحدرت اليهم بهذا كله ، وبالمصلحة المشتركة ، مشاعر المصريين ، وتقمصتهم عروبتها . وأصبحوا بحكم مراكزهم قادة هذه العروبة فى زمانهم . وأصبحت غزواتهم فى سبيلها وفى سبيل وحدة الوطن العربى الاسلامى . وتبوأت مصر بذلك ، مكان الزعامة فى العالم العربى والاسلامى معا ، حتى فى مجال العلم والأدب .

***

والفترة التى اعتلى فيها الملك الأشرف « قانصوه الغورى » عرش السلطنة ، وهى الجزء الأخير من عصر دولتى المماليك ، الواقع بين سنتى ٩٠٦ هـ ، ٩٢٢ هـ ، من أهم الفترات الحاسمة فى تاريخ مصر . اذ أنها كانت باتجاهاتها الداخلية ، وبحروبها الخارجية ، مثلا من أمثلة الحفاظ على العروبة ووطنها . ولكنها أدت فى النهاية الى الاحتلال العثمانى البغيض .

وهى فترة جديرة بالدراسة الواسعة المفصلة . ونعتقد أن دراستنا لشخصية الأشرف الغورى ، ولأعمـــاله وتصرفاته ،

تكشف الكثير من نواحى هذه الفترة ، وتلقى أضواء على أحوال المجتمع المصرى ، حينذاك . ولا سيما اذا علمنا أن المجتمع كان — بحسب أوضاعه وتقاليد ونظام حكمه — مرتبطا بسلطانه أشد الارتباط ، اذ كان هو محور الدولة ومصدر السلطات ومخطط السياسة .

***

وكان من سوء طالع الغورى ، أن ترسبت فى فترة حكمه ، مساوىء العصر المملوكى ، وتخلفت فيه من سنيِّه الطويلة ، كل عوامل الضعف والانحلال ، من ركون الى الدعة والترف ، واسراع الى الفتنة والائتمار ، ونزوة الى تحقيق الأطماع غير المشروعة ، ولهو عن رعاية المصلحة العامة .

وقد بدت آيات ذلك لعينى الغورى ، حينما وقع عليه الاختيار لولاية السلطنة . فأشفق على نفسه من حمل العبء ، واعتذر وتأبَّى . ولعله أول أمير تسعى اليه السلطنة فيرفضها ، وكان الأمراء من قبله يتطاحنون فى سبيل البلوغ اليها ، ويبيعون الود والوفاء ، ويهدرون الكرامة والشرف ، ويشترون الضمائر والذمم ، ويشرعون السيف والرمح .

أما الغورى فقد تمنع وبكى . ولكنه ما ان قبلها فى النهاية ، حتى انغمر فى دواماتها وأحداثها ، وابتلى بمضاعفات حمَّاها ، وشارك بتصرفاته فى وقوع أقدار هذه البلاد .

وهو ، وان اعتبر من أعظم سلاطين العـرب ، بما له من منشآت وحسنات ، وبصدق نيته فى الدفاع عن مصر والوطن العربى ، كان السلطان الوحيد ، من بين سلاطين المماليك بمصر ، الذى استشهد فى وسط المعركة وهو يدافع عنها .

***

وكان اعتمادنا الأكبر فى انجـاز هذا البحث ، على كتاب « بدائع الزهور » لابن اياس الحنفى مؤرخ مصر الكبير ، ثم على غيره من المراجع التى أثبتناها فى الصفحة الأخيرة . ولعلنا بهذه السطور الوجيزة ، نعرّف القراء بشخصية هذا السلطان ، ونوضح بعض جوانب مجتمعه . والله الهادى الى سواء السبيل .

المؤلف

الفصل الأول

أضواء على المجتمع المصرى

علينا أن نلقى نظرة يسيرة على المجتمع المصرى ، خلال عصر الأشرف قانصوه الغورى ، ليعاون ذلك على فهم ملابسات حياته ، وايضاح شخصيته وما لها من مميزات .

وفى الحق ، يعتبر المجتمع المصرى ، حينذاك ، فى كثير من جوانبه ، امتدادا لما كان فى عهود من تقدم من سلاطين المماليك . على أنه سيتضح لنا أن ثمة آثاراً أخرى تركتها فيه تصرفات الغورى ، ولا سيما فى الجانب الاقتصادى والسياسى . وسيتبين ذلك تباعا خلال البحث . أما الناحية الاجتماعية والثقافية ، فنوجز الحديث عنهما فيما يلى :

الحياة الاجتماعية :

وقد كان المجتمع مؤلفا من طبقتين متميزتين هما : الطبقة الحاكمة ، والطبقة المحكومة .

وتتكون الطبقة الحاكمة من السلطان وهو ولى الأمر الشرعى ، ومن أمراء دولته ، وهم يعاونونه فى الحكم ،

ويختارون السلطان من بينهم ، اذا خلا منه منصبه . ومن جنوده السلطانية ، وهم عماد الجيش وحفظة الأمن .

وجميع رجال هذه الطبقة — فى جملة الأمر ، من الجنس الچركسى . وقد استبدت بكل أسباب القوة ، وقصرت على نفسها التعليم العسكرى وتعاطى الفروسية والتمرن على أعمال الحروب ومزاولتها . فكانت بذلك طائفة من الجنود والفرسان تحكم البلاد بقوة السلاح . وهذا هو الوضع من أول عصر دولتى المماليك .

ومن ثم استأثرت بأكثر مناصب الدولة ، ولا سيما المناصب العليا ، والمناصب العسكرية . واستخدمت فى مناصب القضاء والانشاء وكتابة الدواوين ، فريقا من مثقفى الشعب ، ممن تفقهوا فى الدين ، أو حذقوا العربية .

وتوزعت فيما بينها الأراضى الزراعية على شكل اقطاعات . ويبدو أن « الروك الناصرى » هو الذى سار العمل به فى عهد الغورى مع تعديلات يسيرة . — وسنشير الى ذلك فى حينه .

أما الطبقة المحكومة ، فهى عامة الشعب ، وأغلبها من الجنس العربى ، وبينهم التجار وذوو الرفاهة والنعمـة من الملاك ، والباعة والسوقة ، والصناع وأهل الفلح من الزراع وسكان الريف ، والفقهاء وطلاب العلم « المثقفون » ، والأجراء وأهل الحرف ، وذوو الحاجة والمسكنة ، ويسمونهم « الحرافيش » .

ويضاف الى هؤلاء ، قبائل كثيرة من العـربان ، كانوا يعيشـون على شىء من الحرية والاستقلال فى ظواهر الأقاليم

وأطرافها . وكذلك كثير من الأسر القبطية المصرية ، وجاليات من اليهود والنصارى والأرمن والروم والمغاربة ، توطنوا فى هذه البلاد للتجارة والارتزاق[1] .

***

وكانت الصبغة الدينية الاسلامية ، هى الصبغة الغالبة على هذا المجتمع ، فى جملته . وقد كان بالبلاد خليفة عباسى من نسل الخليفة الحاكم بأمر الله العباسى ، الذى أقيم بمصر فى عهد الملك الظاهر بيبرس . وكانت مبايعة الخليفة للسلطان تقليدا لا بد له ، لاسباغ الصفة الشرعية على سلطنته .

وكذلك كان القضاء شرعيا ، يتولاه أربعة قضاة ، من كل مذهب قاض ، له عدة من النواب ، يسمون « نواب الحكم » . وكانت مذاهب أهل السنة الأربعة ، هى المذاهب المتبعة حينذاك ، مع تفضيل تقليدى لمذهب الامام الشافعى . ومما شاب القضاء فى عهد الغورى سعى بعض القضاة الى الوظيفة بدفع رشوة للسلطان ووسطائه ، والمبالغة فى أجرهم على القضاء .

وكان التعليم منصرفا الى العناية بالعلوم الدينية والعربية . ولذاك كانت المساجد والمدارس مفتوحة لأبناء الشعب ، مزودة بمجموعات من الكتب ، ولها أوقاف ينفق عليها من ريعها . وبجوارها خوانق وزوايا للصوفية .

---

(١) اغاثة الأمة للمقريزى .

وسنرى أن الغورى أنشأ له مسجدا بحى الشرابشيين ، وبنى ازاءه مدرسة وقبة ومدفنا ومكتبا لتعليم الأيتام ، وأنه قرر دروسا دينية فى مدرسته هذه ، ووظف لها شيخين من كبار شيوخ عصره . — وسنعود الى تفصيل الحديث عن التعليم .

وكانت المناسبات الدينية فرصة واسعة لاظهار الشعور الدينى ولاذكائه . فكان الخليفة والقضاة يفدون على الغورى فى أول كل شهر عربى ، وأول كل عام هجرى ، لتهنئته . وكان الغورى حريصا على تأدية صلاة الجمعة والعيدين بجامع القلعة ، فى حفل حاشد ، يشهده الأمراء والقضـــاة والعلماء وأعيان الناس .

ويستقبل شهر رمضان المعظم باطلاق المســجونين وبذل الصدقات . واعداد خلع عيد الفطر ، لتوزيعها على مستحقيها . وفى العيد الأكبر تذبح الأضاحى ، وتوزع لحومها على الناس .

واهتمت الدولة والشــعب اهتماما خاصا بالمولد النبوى الشريف ، وكان الغورى يحتفل به فى ميدان القلعة احتفالا شـــائقا . وتنصب له بالحوش الســـلطانى « الخيمة الكبـــيرة المدورة » ، وهى التى صنعت فى زمن الملك الأشرف قايتباى ، وأنفق على صنعها وزخرفتها ثلاثين ألف دينار . وفى ليلة المولد يجتمع بالسلطان كبار رجال الدولة ، ويتلى القرآن الكريم والسيرة النبوية المطهرة ، وتنشـــد الأشعار ، وتمد الموائد . ويستمر الصوفية فى ذكرهم الى مطلع الشمس .

وكذلك كان الاهتمام بموسم الحج . وفيه يعد المحمـــل

الشريف قبل موعد خروجه بنحو ثلاثة أشهر . ويعرض مرتين ، مرة فى رجب ، ومرة فى شوال . وقد أمر الغورى باعادة ألعاب « الرماحة » أمام المحمل أثناء دورانه . وكان ذلك تقليدا من تقاليد الدولة ، ولكنه أبطل قبل الغورى بنحو أربعين عاما . و « الرماحة » نحو أربعين فارسا من أمهر الفرسان ، لهم براعة فى لعب الرمح على ظهور الخيل ، وهم يلبسون أثوابا حمراء خاصة . فكانوا مبعثا لاعجاب الناس وتسليتهم .

***

واهتمام المصريين بنهرهم الخالد النيل العظيم ، اهتمام قديم . واطرد ذلك الى زمن الغورى . فكان يوم وفاء النيل أحد أعياد الشعب والدولة معا فيخرجون على ظهور السفن والزوارق الى ناحية المقياس بجزيرة الروضة ، ويخلّقون عموده — يطلونه بالخلوق وهو نوع من الطيب — ويدورون حول الجزيرة ، ثم يعودون الى فتح سد الخليج الكبير . وهم فى فرح وأنس واستبشار ، بين رقص وغناء ونشيد .

وبهذه المناسبة ينظم الشعراء والزجالون أغانيهم الجديدة فى نهر النيل ووصف وفائه ومقياسه .

ويرأس الاحتفال — عادة — أحد كبار الأمراء نائبا عن السلطان . وممن ناب عن الغورى فى ذلك ، قيت الرجبى وقرقماس بن ولى الدين ، وسودون العجمى ، تباعا .

ومما يذكر أن النيل فى عام ٩١٧ هـ تأخر عن الزيادة فى

موعدها ، حتى خيف منه عدم الوفاء . واعتقد الغورى أن ذلك حدث بسبب كثرة الموبقات وزيادة الآثام بين الناس . ولهـذا رسم لحاجب الحجاب ــ وهو الأمير أنسباى ــ ولوالى القاهرة ، أن يصادرا المتفرجين بجزيرة الروضة . وكانوا قد نصبوا بهـا خيامهم للهو والمجون فى ليالى النيل ، حتى ازدحمت الجزيره بهم . فأخذ الحاجب والوالى ينـاديان فيهم بأن يمتنعـوا عن المعاصى ، وبألا يجهروا بها ...

وكان الغورى قد قصد الى المقياس قبيل الوفاء ، ومعه الأميران سـودون العجمى وطومان باى الدوادار . ونزل فى قصره ببسطة المقياس . فصلى لله ودعا أن يأمر بوفاء النيل ... ورسم للقضاة بالمبيت وقراءة ختمة ، للغرض نفسه . واجتمع اليهم لفيف كبير من أعيان الناس والعلماء .

وبلغ النيل حد الوفاء . فعلقوا سترا فى نافذة قصر السلطان بالمقياس . ــ ولعل ذلك كان من وسائل الاعلان بالوفاء ــ وفى الصباح ــ ثانى يوم الوفاء ــ ركب الأتابكى سودون العجمى « الحراقة » ــ وهى السفينة الرسمية المعدة للاحتفال بعيـد الوفاء وفتح السد ــ فخلّق العمود وفتح السد ثم صعد الى القلعة ، فخلع عليه السلطان خلعة ثمينة .

***

واعتاد الناس أن يخرجوا الى الأماكن الخالية والمنازه العامة ، للرياضة والمتعة والتفرج . واشتهر من هذه المنـازه فى زمن

الغورى « جزيرة الروضة » وهى عروس النيل الكبرى التى احتضنها فيما بين الجيزة والفسطاط ، وهى جزيرة المقياس . وكانت اذ ذاك ، ذات مناظر جميلة وخمائل ظليلة ، وأزاهير عطرة فيح ، وفاكهة حلوة دانية . وكثيرا ما كان الناس يؤمونها فى المناسبات . وفى ليالى وفاء النيل ، كانت تضرب بها الخيام وتقام الأسواق ، ويتعاطى البيع والشراء ، وتنشط دواعى اللهو والمجون .

ومن المنازه حينذاك « جزيرة بولاق » التى ظهرت فى النيل لأول مرة عام ٩١٢ هـ تجاه بولاق . ويبدو أنها هى التى سميت فيما بعد بالجزيرة الوسطى . وعلى اثر ظهورها ، عجل اليها الزراع ، فغرسوا بها الرياحين وزرعوا الزروع . وقصدها الناس من كل فج للهو والسمر . وكانوا يقيمون بها موند سيدى اسماعيل الانبابى كل عام ، ويضربون لذلك نحو خمسمائة خيمة .

وكانت « بركة الرطلى » من أهم منازه القاهرة ، ويتصل بها الخليج الكبير . وعلى جانبيها أقيمت أماكن للهو والطرب ، وللطعام والشراب ، وفيها جرت الزوارق تحمل المرتاضين والعشاق . وكان علية الناس يقصدون سكناها فى فصل الصيف وفى موسم فيضان النيل ، بخاصة ، فيتمتعون بمناظر جميلة وأنسام عليلة ، وينفقون على ملذاتهم ما ادخروه من الأموال . وقد أصاب البوار والكساد هذه البركة ، بعد خروج الغورى الى حلب .

وقد ظلت « البركة الأزبكية » التى أنشئت منذ عام ٨٨٠ هـ ، من منازه القاهرة العامرة فى زمن الغورى .

وكان للناس ضروب من الألعاب للتسلى والتلهى . وفى مقدمتها لعبة « خيال الظل » التى ظلت على كثير من رونقها حتى شهدها السلطان سليم بعد الفتح ، وأعجب بها فنقلها الى عاصمته .

***

وكان من المعتاد لديهم عند الزواج ، توسيط « الخاطبة » كما هو مألوف فى بعض البيئات المصرية حتى اليوم . ثم تتقدم الى العروس ، الهدايا من الأقمشة والشمع والزيت والسكر والصابون ونحو ذلك .

وتقام حفلات العقد والزفاف ، بين زينات مضروبة ، وقناديل موقدة . ويفد المهنئون بالهدايا . وتمد لهم الموائد الشهية ، ويطاف عليهم بأكواب الشراب . ويسمرون جميعا طرفا من الليل ، يستمتعون فيه بسماع الأغانى والموسيقى .

وقد أقيم فى المحرم عام ٩٢٢ هـ زفاف الأمير « قايتباى » ، فاجتمع فيه — على ما قيل — خمس وعشرون ريّسة من أعيان المغنيات .

وخطب الغورى لابنه الناصرى محمد — وهو فى سن الثالثة عشرة تقريبا — ابنة الأمير سيباى نائب الشام آنذاك ، وأرسل اليه بدمشق اثنين من رجاله للقيام بهذه الخطبة . وبعث

اليه عشرة آلاف دينار مهرا معجلا . وجعل مؤخر الصداق عشرة آلاف أخرى .

وفى شوال عام ٩٢٠ هـ ، عقد العقد بجامع القلعة بحضور الأمراء والقضاة وكاتب السر وأعيان المباشرين . وطافوا على الحاضرين بأوانى الشراب ، وخلع السلطان على القضاة خلعا ثمينة — وهى كوامل من الصوف الأبيض بصمور — وخلع على كل من الأميرين سودون العجمى ، وطومان باى الدوادار ، كاملية من المخمل الأحمر بصمور ، لأنهما كانا وكيلى العقد .

قال ابن اياس : « ولم يقع فى هذا العقد ما هو كبير أمر من الأفعال الملوكية » .

***

وفى الجنازات يكثرون البكاء على الميت ، وتعول النساء فى الطرقات بالليل . وينعون الفقيد على أبواب المساجد وفوق المآذن . ويكفنونه فى أثواب خاصة تعرف « بالبعلبكية » . وعند مسير الجنازة يبرز شخص يسمى « المدير » فيثنى على الفقيد ويذكر محاسنه . وقد يحملون « الكفارات » أمام الجنازة ، وتتكون من خبز ونحوه ، فتوزع على الفقراء . وفى طريق الجنازة يجلس بعض القراء يرتلون القرآن الكريم أو يقرءون الأوراد .

ويحيون أول ليلة تمر على وفاة الميت بعد أسبوع ، ولو لم تكن ليلة الجمعة . وتقام ليالى العزاء أحيانا بالندب والعويل والضرب على الدفوف .

وقد أمر الغـــوری فی عام ٩١٠ هـ بابطال النعی بالليل ، والنواح بالدف . ثم ضبطت احدى النادبات وهى تدق بالدف وقت العزاء ، فقبض عليها وأركبت حمارا والدفوف معلقة فى رقبتها ، وأشهرت فى القاهرة .

***

وابتلى الناس ـــ ولا سيما القاهريون ـــ فى زمن الغورى بجملة من الأحداث والنوازل ، التى أقضت مضاجعهم ، وراح ضحيتها كثير منهم . ومنها الأوبئة والطـــواعين ، والغـــلاء ، والحرائق ، واضطراب الأمن وسطو اللصوص والمجرمين .

ومن أشهر الطواعين النازلة ، طاعون عام ٩١٠ هـ . فقد فشا فى شهر رمضان ، واشتد خطره ، وفتك بالناس فتكا ذريعا فى شوال . وكثرت ضحاياه من بين الأطفال والمماليك والعبيد والجوارى والغرباء ـــ أى الطبقات الفقـــيرة أو الضعيفة ـــ وشهدت القاهرة حينذاك ، فى كل يوم نحو أربعة آلاف جنازة .

وقيل ان السكر النباتى ندر وجوده يومئذ ، وغلا ثمنه . ويبدو أنه كان يستخدم فى العلاج .

وقد أمر السلطان الغورى بفتح مغسل عام للأموات بجوار سبيل المؤمنى . تقربا الى الله ، ليرفع هذا البلاء عن الناس . وكذلك منع الأمراء من الفصل فى القضايا ، وترك ذلك لقضاة الشرع . وكانت أحكام الأمراء فيها الظلم والجور والقسوة .

فمنعهم من باب التقـــرب الى الله أيضا . كما أنه ألغى بعض الضرائب وأمر باغلاق دور الخمر وبؤر الفساد .

وقد نظم العالم الكبير الأديب الشيخ جلال الدين السيوطى أبياتا فى هذا الوباء ، وهو يدعو الله سبحانه وتعالى ، أن يكشفه عن الناس . ومنها قوله :

يا رب بالهــــادى النبى المجـــتبى
أغمد عن الاســـلام أسياف الوبا
يا رب لا نشـــكو أليم عـــــذابه
الا اليك فقد أخاف وأرعبا ...الخ

ومما يذكر أنه حينما وقع طاعون عام ٩١٩ هـ ، أشار بعض الناس على السلطان الغـــورى ، أن يتقيه بلبس خـــواتم من الياقوت الأحمر . ففعل . فكان ذلك مثار العجب .

***

أما حوادث الغلاء فقد وقعت فى سنوات متعددة ، وقاسى الناس من ورائها مشقات لا نهاية لها . وقد كانت لها أسباب كثيرة ، وسلك الغورى لعلاجها مسالك شتى . وسنشير الى ذلك بشيء من التفصيل ، عند الحديث عن الأحوال الاقتصادية

***

الحياة الثقافية :

ولكى نعرف معالم الحياة الثقافية فى عهد الغورى ، علينا أن نعود القهقرى الى أوائل عصر المماليك . فقد شعرت مصر

حينذاك ، وبعد سقوط بغداد فى يد التتار ، أن الأقدار اختارتها لتكون ملاذا وحاميا لعلوم الدين واللغة . فكما كافحت التتار والصليبيين وغيرهما من أعـداء العرب والمسلمين ، استكملت وسائل النهوض بأداء رسالتها فى ميدان العلم والأدب .

وبجوار التعليم العسكرى الذى كان مقصوراً على المماليك وحدهم فى طباق القلعة ، فسحت المجال أمام أبناء الشعب لتعلم علوم الدين واللغة وما يتصل بهما . وكانت المساجد دوراً للتعليم واسعة مفتحة الأبواب لمن يشاء ؟ وقد جدوا فى انشائها وانشاء المدارس ، واختيار أفاضل الشيوخ للتدريس فيها . ورتبوا الرواتب لطلابها ، ووقفوا عليها الأوقاف ، وزودوها بخزائن كتب ثمينة . ورحبوا بالوافدين الى مصر أو الشام من شيوخ العلم وطلابه من كل الأصقاع الاسلامية . وعنوا بدراسة فقه المذاهب الأربعة ، ولا سيما المذهب الشافعى .

وكان لذلك أثر كبير فى خلق طبقات متتابعـة من أفاضل العلماء والأدباء ، كان منهم قضـاة الشرع ونوابهم والمفتون والخطباء والأئمة ، والحفاظ والمجتهدون . وكان منهم المؤلفون والمنشئون والشعراء ، وغيرهم . وقد كان منهم رؤساء الدواوين وكتابها . وحفظوا جميعا تراث الدين واللغة ، وأحسنوا أداءه للأجيال بعدهم .

وعلى هذا النمط اطردت الحياة الثقافية فى عصر الغورى . فظل كثير من المساجد والمدارس عامرا . والحركة التأليفية فى طريقها . وكان الاتجاه الأدبى استمرارا لما قبله . ولكن كل

ذلك كان الى ضيق وضعف وضحالة ، نتيجة لتكالب عوامل القلق والتفكك والظلم ، التى سادت فى البلاد أخيرا .

وظلت مراحل التعليم ثلاثا : مرحلة الطفولة ، وفيها يتعلم الصغار فى « المكاتب » فيحفظون القــرآن الكريم ويعلمون القــراءة والكتابة . وكانت المكاتب ملحقة ــ فى العــادة ــ بالمساجد والمدارس ، ويشرف على كل منها «مؤدب أطفال » .

وعلى سبيل المثال : قيل ان « نور الدين الجارحى المصرى » الذى عاش فى عصر الغــورى ومات عام ٩٣١ هـ ، كان عالما فاضلا ، وكان شيخا لمدرسة الغورى وأنه كان يقرىء الأطفال تجاه جامع الغمرى ، وكان اذا نظر الى الطفل رعد من هيبته [1] .

والمرحلة الثانية : فى المراهقة والشباب . وفيها يحفظ الطالب عدة كتب ومتون فى علوم متنوعة كالفقه والحديث ومصطلحه والنحو والقراءات والأصول . ويعرض ما يحفظه على شيخ أو أكثر ، فيمتحنه فيه ويمنحه اجازة ، تسمى « اجازة عراضة » يشهد له فيها بما حفظه .

والمرحلة الثالثة : هى أهم المراحل فى حياة المتعلم ، وهى بمثابة الدراسة الجامعية الآن . وفيها يجلس الطالب باختياره ، الى عدد من كبار شيوخ العلم ، فى مسجد أو أكثر ، فيتلقى عنهم ويشافههم ، مستعينا بمحفوظاته . حتى اذا نضج ، اختبره واحد منهم أو أكثر ، فيما درسه عليه ، ويمنحه «اجازة» بالفتوى

---

(١) الكواكب السائرة ج ١ فى حسن .

أو التدريس أو رواية الحـــديث . ومن ثم يفتح له باب العمل والوظيفة .

وقد أشرنا الى أن الغورى فتح مدرسة ازاء مسجده وعين فيها شيخين للتدريس . وبنى مكتبا للأطفال .

هذا . ودأب كثير من الطلبة على الرحلة فى سبيل العلم . وقد قيل ــ مثلا ــ عن محمد بن هلال النحوى ، وهو « شمس الدين العرضى الحلبى » المعروف بابن هلال ، والذى عاش فى عصر الغورى ومات عام ٩٣٣ هـ انه تتلمذ فى حلب ، على الشيخ محمد الداديخى والعلاء الموصلى ، فلم يبلغ مطلوبه ، فارتحل الى القاهرة [١] .

***

وقد عاش فى عصر الغورى كثير من العلماء والأئمة الفضلاء ، الذين زاولوا التـــدريس أو الفتوى أو اشتغلوا بالقضـــاء أو التأليف . ومنهم على سبيل المثال :

جلال الدين السيوطى ، المتوفى عام ٩١١ هـ . وله أكثر من خمسمائة كتاب فى علوم مختلفة ، ومنهـــا الحديث والتفســـير والتاريخ .

وزين الدين زكريا الأنصارى المتوفى عام ٩٢٦ هـ . وقد ولى قضاء الشافعية زمنا طويلا . وله مؤلفات فى الفقه والبلاغة .

---

(١) الكواكب السائرة ج ١ فى محمد .

وشهاب الدين القسطلانى المتوفى عام ٩٢٣ هـ . وهو من أئمة حفاظ الحديث . وله « ارشاد السارى » فى شرح صحيح البخارى .

وفخر الدين عثمان الديمى ، المتوفى عام ٩٠٩ هـ . وكان شيخ الحديث فى زمانه . وتتلمذ له فيه طبقات من الرجال .

ونور الدين الأشمونى المتوفى بعد عام ٩٢٠ هـ . وكان علامة فى فقه الشافعية والقراءات والأصول والنحو .

ومحمد بن النجار الدمياطى المتوفى عام ٩٢٨ هـ . وكان حجة فى فقه الحنفية وغيره من علوم الدين . وكان شيخ الحديث فى زمانه .

وابن اياس الحنفى المؤرخ الكبير المتوفى فى نحو عام ٩٣٠ هـ صاحب كتاب « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » فى تاريخ مصر [١] .

***

ويدلنا ما أقامه الغورى من المنشآت والمرافق العامة ، وما غرسه من البساتين ، وما عمره من الجسور والخلجان وما بناه من الأساطيل ، على وجود عدة فنون وصناعات بالغة الأهمية فى حياة الشعب ، كهندسة البناء وفن المعمار وزخرفة المبانى وصناعة الترخيم والخزف ، والهندسة الزراعية ، وصناعة السفن

---

(١) تراجع تراجمهم فى الكواكب السائرة ج ١

والأسلحة . كما اشتهرت البلاد فى عهده بالطب وبخاصة طب العيون ، الى غير ذلك .

وقد عاش فى ذلك العهد ، عدد لا بأس به من المهندسين والأطباء المشاهير ، والصناع . ومنهم على سبيل المثال :

المعلم حسن بن الصياد : كان مهندسا بارعا . صنع نموذجا من الجبس لمدينة الاسكندرية بكل ما فيها من الأبراج والأبواب والمنارة وغير ذلك . وأقام هذا النموذج فى المطرية . وقد زاره الغورى فى شعبان عام ٩١٦ هـ لمشاهدة نموذجه وأعجب بما فيه من صناعة وفن .

واشتهر من الأطباء ، الرئيس بركات السكندرى المتوفى عام ٩١٥ هـ . وشمس الدين القوصونى المتوفى عام ٩١٧ هـ ، وعبد القادر القطبى المتوفى عام ٩١٩ هـ .

وممن عالج الغورى من مرضه بارتخاء الجفون : القوصونى المذكور ، وعبد الرحمن بن الشريف الكحال ، وتقى الدين المنوفى الكحال ، وصلاح الدين الشامى . ـ والكحال هو طبيب العيون .

واشتهر فى زمنه أيضا المعلم عبد القادر الشماع المتوفى عام ٩١٨ هـ . وكان نابغة فى فن التقويم والفلك . والأمير اينال شاد العمائر السلطانية ، وكان عليما بالهندسة ، وخبيرا بفن البناء .

***

وكان للثقافة الأدبية نصيب لا بأس به . فقد أطردت دراسة النحو والصرف وعلوم البلاغة . وملازمة كبار الأدباء للتخرج بهم فى الأدب ، ومعرفة الكتابة والشعر . وكانت العربية الفصحى لغة الرسائل والمكاتبات الديوانية ، ولغـة التأليف والشعر ، وان كانت العامية ، بما فيها من الدخيل والمحرف والملحون ، قد لاثتها لوثة واضحة فى عصر الغورى ، أكثر من العصور التى تقدمته .

واشـتهرت الخطابة المنبرية ، لضرورتها الدينيـة . وكان الخطباء ينشئون خطبهم كما ينشىء الكتّاب رسائلهم . وكانت الخطبة ميدانا للمنافسـة بين الخطباء أحيانا ، وذلك لاهتمـام الجماهير بها .

وكان الغورى شديد العناية باختيار خطبائه . ومما يدلك على ذلك أنه عيّن فى جامعه الجديد ، قاضى قضاة الحنفية برهان الدين الدميرى خطيبا . ولكن بعد أن خطب أمامه مرة ، من باب الاختبار ، أعجب به .

وكان قاضى قضاة الشافعية برهان الدين القلقشندى ، هو الذى يخطب بالسلطان خطبة الجمعة بجامع القلعة ، ويؤمه فى الصلاة . وكانت هذه احدى وظائفه التقليدية . ولكنه طعن فى السن ، وصار لا يقوى على الخطبة . فأناب عنه فيها أحد نوابه ، وهو شهاب الدين الحمصى ، فأعجب به الغورى اعجابا كبيرا . ثم ان الحمصى مرض ، فاضطر القلقشندى الى أن يعود الى الخطبة حتى يبرأ نائبه . فلم يقع ذلك من الغـورى موقع

الرضا . وأخذ يرتب الأمر حتى شفى الحمصى من مرضه ، فأقره السلطان فى خطابة جامع القلعة .

وكانت العناية بالكتابة الفنية ، عناية بالغـــة . فمنذ زمن بعيد ، وديوان الانشاء بالقاهرة قائم ، يتولى تسلم الرسائل والمكاتبات الواردة باسم السلطان ، ويرد عليها . ويلقب رئيسه بكاتب السر ، وهو يختار من بين أفاضـــل الكتاب وأبرعهم انشاء ، وأعرفهم برسوم المكاتبات الديوانية ، فضلا عما يتصف به من الذكاء والعلم والسياسة وبعد النظر . فكان وجود هذا الديوان سببا فى تنافس فحول الكتاب فى اجادة الكتابة .

وكانت لكل من الكتابة الديوانية وغير الديوانية قيود فنية والتزامات بديعية ، ظلت على مدى العصر تزيد وتكثر ألوانها ، حتى أثقلت كاهل الكتابة آخر الأمر ، واتضح ذلك فى عهد الغورى ، أكثر مما كان قبله .

واشتهر من رؤساء ديوان الانشـــاء فى العهد المذكور ، القاضى محمود بن أجا الحلبى ، كاتب السر بمصر ، ونائبه القاضى شهاب الدين أحمد بن الجيعان . وقد ألغى ديوان الانشاء عقب الاحتلال العثمانى .

***

ولكن الشعر فى عصر الغورى ، كان أكثر رونقا وجودة من الكتابة . وان كان بالنســـبة لشعر أوائل العصر المملوكى وأواسطه ، أضيق معجما ، وأضعف نسجا ، وأقل جزالة ، وأكثر التياثا باللحن والعامية .

وقد نظمه الشعراء فى أغراض متعددة ، مستجيبين فى ذلك الى وحى بيئتهم . ومن هـذه الأغراض : النقـد الاجتماعى والهجاء ، والمدح ، والمديح النبوى ، والغـزل والتشـوق والعتاب ، والوصف والرثاء . كما نظموه فى التربية والحكمة والنصيحة والتصـوف . ورثاء الدولة الزائلة ، واللغز ، وفى الاخوانيات بعامة .

وقد كان الشعراء من الكثرة ، بحيث يثيرون العجب . وقد روى المؤرخ ابن اياس الحنفى ، أنه فى عام ٩١٧ هـ ، أرسل الشاه اسماعيل الصوفى ملك العجم ، مكاتبة الى الغورى ، مع رسول له يحمل رأس أزبك خان ملك التتار . وكان فى هذه المكاتبة هذان البيتان :

السـيف والخنجـر ريحاننـا
أف على النرجـس والآس
مدامنـا من دم أعـدائنا
وكأسـنا جمجمـة الراس

وكأنه بهما كان يتهكم على الغـورى ، لاهتمامه بغرس الرياحين ، عن الحروب والقتال .

فانبرى للرد عليه عدد من الفضلاء بلغوا نحو مائتى شاعر ، منهم الأشمونى وابن الحجار والناصرى محمد بن قانصوه بن صادق ، والشربينى ، وعلى الغزى ... الخ .

وأورد ابن اياس أسماء كثيرين منهم ، وأبياتا مما نظموه ؛ فمما نظمه ابن الحجار قوله :

يا قائلا أف على نرجس
أف على الباغى على الناس
فان خير الناس من لا يرى
شرب دم المسلم فى الكاس

ونظم الناصر محمد بن قانصوه بن صادق :

العدل والحلم لنا حلة
حيكت مع القوة والباس
وسنة المختار طرز لها
وذكرنا تاج على الرأس

الى غير ذلك . وقال ابن اياس ، ان السلطان الغورى لم يعجبه شىء مما نظمه الشعراء حينذاك . وانما أعجبه قول صفى الدين الحلى :

ولى فرس للخير بالخير ملجم
ولى فرس للشر بالشر مسرج
فمن رام تقويمى فانى مقوم
ومن رام تعويجى فانى معوج

فكتبهما ردا على بيتى الصوفى [1] .

***

(١) بدائع الزهور ج ٤ حوادث ربيع الأول عام ٩١٧ هـ .

وكان من بين الشعراء الذين عاشـــوا فى عصر الغورى ، العالم المتفقه ، والزاهد المتصوف ، والمؤلف البارع ، والحافظ الراوية . وكان من بينهم الأديب المفتن والشـــاعر البديعى . ومنهم من قصّد القصائد أو نظم المقطوعات . ومنهم من شطّر أو خمّس . أو أولع بالتورية والفكاهة والتضمين ، الى غير ذلك . ومنهم على سبيل المثال :

عبد القـــادر الدماصى المتوفى عام ٩١٥ هـ ، وكان شاعرا ناثرا ومحاضرا فكها . نظم فى الألغاز والاخوانيات .

وجلال الدين النصيبى المتوفى عام ٩١٦ هـ . وكان بارعا فى علوم العربية والدين . وقد ولى نيابة القضاء ، وزاول التأليف ، ونظم فى الغزل وغيره . وخمّس احدى قصائد الشاب الظريف

وعـــلاء الدين بن مليك الحمـــوى الدمشقى المتوفى عام ٩١٧ هـ . وكان خبيرا بالنحو والأدب والعروض وفقه الحنفية . وقد افتن فى نظم الشعر وله فيه ديوان كبير ، ومدائح عدة فى الرسول عليه الصلاة والسلام .

وعائشة الباعونية المتوفاة عام ٩٢٢ هـ . وهى الشيخة العالمة المتصوفة . التى أجادت فى المديح النبوى . ولها فيه بديعيتان . كما نظمت فى المدح والزهد والتصوف ، وفى الوصف واللغز .

والناصرى محمد بن قانصوه بن صادق المتوفى عام ٩٢٨ هـ وكان بارعا فى نظم الشـــعر ، قاله فى الوصف والمدح والنقد الاجتماعى . وشارك بشعره فى أحداث بلاده فى عصره . وبكى مصرع الغورى ونكبة البلاد به ، بكاء مرا .

وجمال الدين السـلمونى المتوفى فى نحو عام ٩٣٠ هـ .
وكان من أبرز شعراء عصر الغورى . وكان هجّاء ناقدا ، لاذع النقـد والهجاء . وقد هجا قاضى قضـاة الحنفية عبد البر بن الشحنة هجاء مرا ، حبس بسببه . ووفد مرة على دار قاضى القضاة شهاب الدين بن فرفور ، فمنعه حاجبه من الدخول ؛ فكتب اليه أبياتا يقول فيها :

ببابكمْ كلب عقـور مسـلط
عديم الحيا والعقل فى البعد والقرب
ومن يربط الكلب العقـور ببابه
فان بلاء النـاس من رابط الكلب

فترضّاه القاضى .

وهكذا ترى أن الحركة الأدبية فى عصر الغورى . كانت ذات نبض وحياة ونتاج [1] .

---

(١) راجع تراجم الشعراء فى الكواكب السائرة ج ١

الفصل الثاني

الغورى والسلطنة

الغورى قبل السلطنة :

لا تكاد تتميز سيرة قانصوه الغورى قبل أن يلى السلطنة المصرية ، عن سيرة كثير من أمراء الدولة ، وبعض السلاطين ، قبل ولايتهم السلطنة ، فى عصر المماليك .

وهو وان لم يعرف شىء عن أيام حداثته وصباه ، قيل انه ولد فى نحو عام ٨٥٠ هـ . وهو مجلوب من أصل چركسى . وقد وقع ملكه لسلطان مصر الأشرف قايتباى ، فنسب اليه وقيل له « الأشرفى » .

وسلك طريقــه فى الحياة ، كما كان يسلكه سائر الأرقاء وجنود السلطان . وكان العتق حينذاك مكافأة للمملوك الماهر الفارس الشجاع . ولذلك أعتقــه قايتباى ، ومنحه جملة من الخيل وكمية من القماش ومبلغا من المال ، ليستعين بذلك على حياته الجديدة . وكان هذا تقليدا جرى عليه عرف العتق . ثم عينه قايتباى فى جملة مماليكه الجمدارية ، ثم رقاه فضمه الى الخاصكية[1] .

---

(١) الجمدار : الخادم الذى يعاون السلطان فى ارتداء ملابسه ـ والخاصكى : احد خاصة السلطان من خدم قصره وحراسه .

وما زال قايتباى يوليـــه من عنايته ويرقيه فى المنـــاصب المختلفة ، حتى عينه فى عام ٨٨٦ هـ كاشفا للوجه القبلى . ثم أنعم عليه بلقب « أمير عشرة » فى عام ٨٨٩ هـ ، وبدأ نجمه فى الصعود [1] .

ووصول المملوك الى سـلم الامارة ، يفسح أمامه الطريق للخدمة العامة الجادة ، ويتيح له الفرصة لابراز مواهبه ومهارته فى ميدان أوسع . ولهذا سرعان ما اختير الغورى للخروج فى بعض التجاريد الى البلاد الحلبية . ثم عيَّنه قايتباى نائبا عن السلطان فى مدينة طرســـوس ، وهى احـــدى مدن أرمينية ، الخاضعة للسلطنة المصرية .

واحتدم النزاع بين قايتباى وبايزيد الثانى ملك العثمانيين لأسباب كثيرة ، حتى وقع الصدام بين جيوشهما وتوالت حملات قايتباى على العثمانيين فى آسيا الصغرى ، حتى انتزع منهم مدينة أدنة « أطنا » .

وكانت طرسوس تتـــداولها أيدى المصريين والعثمانيين . فكلما عادت الى المصريين عاد اليها نائبها « قانصوه الغورى » .

وفى عام ٨٩٤ هـ نقل الى حلب بوظيفة « حاجب حجاب » ، ثم نقل الى نيابة مطلية . وكان فى تلك الأثناء يترقى فى سلك الامارة .

ولما مات قايتباى عام ٩٠١ هـ ، عاد « قانصوه الغورى »

---

(١) الكاشف : حاكم أحد أقاليم مصر الداخلية ـ وأمير عشرة : من أصغر ألقاب الامارة وأوائلها . والامارة قيادة الجند .

الى القاهرة ، ودخل فى خدمة السلطان الجديد الناصر محمد بن قايتباى ، فأنعم عليه بلقب « أمير مائة ومقدّم ألف » وهو أعلى ألقاب الامارة . وبذلك صار فى الصف الأول من صفوف أمراء الدولة الذين بيدهم الحل والعقد فى سياستها العليا . وأسندت اليه وظيفة « رأس نوبة النوب »[1]

ثم ولى السلطنة بعد ابن قايتباى ، خاله الظاهر قانصوه بن قانصوه ، ثم الملك الأشرف « جان بلاط » . وحينئذ أعلن الأمير « قوصروه » نائب الشام ، العصيان والتمرد . فجرد عليه « جان بلاط » تجــريدة كبيرة لتأديبه وردعه ، بقيادة الأمير « طومان باى » الدوادار . وكان « قانصوه الغورى » أحد القادة فى هذه التجريدة .

وهناك فى بلاد الشام ، تآمر «طومان باى» قائد التجريدة ، هو ومن معــه من القــادة والجند ، ومنهم الأمير « قانصوه الغورى » على الغدر بالملك الأشرف « جان بلاط » . واتفقوا مع الأمير « قوصروه » نائب الشام ، على أن يكونوا جميعا يدا واحدة على « جان بلاط » .

وأعلن « طومان باى » بنفسه سلطانا فى بلاد الشام ، بمعونة من معه من المتآمرين . ولقبوه بالملك العادل . وزحفوا جميعا على مصر . فدافع « جان بلاط » عن نفســه وسلطنته ، حتى

---

(1) رأس نوبة النوب : رئيس هيئة تنظيم حركات الجنود ، ومراقبتهم فى أعمالهم كافة .

تمكنوا من القبض عليه وخنقه بالاسكندرية . وذلك في جمادى الآخرة عام ٩٠٦ هـ . وبذلك تمت السلطنة للعادل طومان باى .

وقد أسند العادل منصب الأتابكية الى عضده الأكبر الأمير « قوصروه » . أما الأمير « قانصوه الغورى » فقد أسند اليه الدوادارية الكبرى والوزارة والأستادارية .

الا أن العادل سرعان ما غدر بصديقه « قوصروه » فقتله دون جريرة . وأخذ يشتط فى سفك الدماء ، ويسىء الظن بالأمراء ، ويغضبهم ويسجن بعضهم ويدبر الغدر بهم . فدعاهم ذلك الى التألب عليه . وانضم اليهم أكثر الجنود السلطانية . فلما أحس بذلك فر ناجيا بنفسه ، واختفى عن الأنظار ، وذلك فى سلخ رمضان عام ٩٠٦ هـ .

فتطلع الأمراء الى اختيار سلطان جديد ، فانتهى الرأى الى اختيار الأمير « قانصوه الغورى » .

***

اختيار الغورى للسلطنة :

والواقع أن الأمير « قانصوه الغورى » كان رجل الساعة . فقد كان ، الى دماثة خلقه وتواضعه ، من أكبر الأمراء سنا وأكثرهم وقارا ورزانة ، ومن أقلهم تلوثا بالحزبية والفتنة ، كما كان من أبعدهم طمعا أو تطلعا الى السلطنة .

ورجل مثله ، يمكن أن يكون محل رضا وقبول من جميع الأطراف . ولذلك اتجهت الأنظار اليه .

وفى الحق كان هناك رجلان ، يصلح كل منهما للسلطنة . وهما الأميران « قانصوه خمسمائة » و « تانى بيك الجمالى » وكان الأول مختفيا اثر انهزامه فى احدى فتنه ضد الناصر محمد ابن قايتباى . وكان الثانى مختفيا أيضا اثر هزيمة الملك العادل طـومان باى وفـراره ــ وقد كان « تانى بيك » من رجال العادل ــ ولكل من الرجلين ماض حافل .

واجتمع الأمراء المناهضون للعـادل طومان باى ، ومنهم قانصوه الغورى ، وقيت الرجبى ، ومصر باى ، وقانى باى قرا واصطمر ، وأنصباى ، وطقطباى ، وماماى جوشن ، وخاير بيك المعروف بأخى قانصوه البرجى .

وأخذوا يتشاورون فى الأمر ، ونفوسهم متجهة الى اختيار قانصوه الغورى . غير أنهم رأوا أن يبدءوا بالنداء على الأميرين المختفيين ليظهرا . فلعل الرأى يقع على أحدهما لولاية السلطنة . فلم يظهر قانصوه خمسمائة . وظهر الأمير «تانى بيك الجمالى» . فقويت الرغبة فى سلطنته ، وذلك لسنه وتجاربه . وبدءوا فى اتخاذ الأهبة لترتيب موكبه .

ويبدو أن بعضهم تذكر آنذاك أن « تانى بك » كان من عصابة الملك العـادل طومان باى ، وذكروا أنه كان ذا خفة وطيش ، وأنه أميل الى الحزبية فلا يؤمن جانبه . وخشيه كثير من الجنود .. وهكذا قوى تيار المعارضة ضده ، فانصرفت عنه الرغبة .

وتحمس بعض الأمراء آنذاك ، ونادوا بسلطنة الغورى ،

وتعصبوا له تعصبا شديدا ، وكان من بينهم « قيت الرجبى » و « مصر باى » فحرضوا الأمراء على اختياره ، حتى تم اجماعهم عليه .

وأمسكوا بتلابيبه لتوه ، وجذبوه لمبايعته بالسلطنة . فامتنع عن قبولها امتناعا شديدا حتى بكى . وأشفق على نفسه من حمل تبعاتها فى هــذه الآونة ، اذ الفتن ضــارية ، والجنود متنابذون ، والأمراء قلوبهم متفرقة ، وأعداء البلاد متربصون . وخزائنها خاوية على عروشها . واقتصادياتها مهددة ، الى غير ذلك .

ولكن الأمراء ألحوا عليه بالقبول . وكتبوا محضرا بخلع العادل « طومان باى » . ثم أجروا مراسيم البيعة والتوليه ، والدموع تملأ عينيه اشفاقا ورحمة ..

ولقبــوه بالأشرف ، وكنوه بأبى النصر . وكان ذلك فى مستهل شوال عام ٩٠٦ هـ .

***

البحث عن الملك العادل :

وما ان ولى الغــورى السلطنة ، حتى انغمر فى دواماتها ــ كما نوهنا ــ وكان شغله الشاغل أن يقبض على الملك العادل طومان باى ، الذى اختفى هو وبعض رجاله الموالين له ، فلم يُعــرف لهم أثر ، وكان من بينهم الأمراء : جانى بك شــاد الشرابخاناه ، ومصر باى الصغير ، وأزبك النصرانى ، وغيرهم

فأطلق الغورى أعوانه فى اثر العـــادل وعصابته ، ففتشوا المنازل والبيوت ، وفَجَئوا الناس فى الشوارع والأزقة ، وشددوا النكير بالنهار وبالليل . فلم يعرفوا لهم خبرا .

وكان قاضى قضاة الحنفية برهان الدين بن الكركى ، من خلصان العادل وخاصته ، فنمى الى أعوان السلطان أنه يخفى العادل فى داره ، فهجموا على الدار فلم يجدوه بها ، وغادروها بعد أن عاثوا بما فيها . وعزل السلطان ابن الكركى هذا ، وعين مكانه فى القضاء عبد البر بن الشحنة . ثم قبض على ابن الكركى وسجنه فى دار الأتابكى « قيت الرجبى » بتهمة أن العادل أودع عنده أموالا .

واستعرض السلطان مماليك العادل ، وأمر بنفيهم جميعا الى الصعيد ، وهدد من يتخلف منهم عن الرحيل بالشنق .

وحار حاجب الحجاب ووالى القاهرة وشرطتهما ، فى البحث عن العادل وعصابته ، دون جدوى .

الا أن العادل أخذ ينشط ويبث دعايته ، ويعمل للعودة الى العرش . فشرع يجمّع شمل أعوانه ، ويكتب منشـورات يوجهها الى الجنود لمعاونته ، باذلا لهم أجمل الوعود . وكانت منشوراته تعلّق بالقبو عند سوق السلاح وغيره من الأماكن التى اعتاد الجنود أن يتجمهروا عندها . ويعلن لهم فيها أنه تاب عن ظلمه ومآثمه ، وأنه سيعمل على نشر الأمن واقامة العدل فى البلاد ، وأنه سينفق عليهم ويرضيهم باجابة مطالبهم ، الى غير ذلك .

وطال اختفاء العادل ، وضاعت جهود الغـورى ورجاله سدى . فرأوا بذل الحيلة والمكيـدة . فاستمالوا أميرين من عصبة العادل هما « جانى بك » شاد الشرابخاناه ، و « جانى بك الشامى » ، وبذلوا لهما الأمانى العريضة بعفو السلطان عنهما ، وترقيتهما الى أعلى رتب الامارة .

وكان بطل المؤامرة الأمير «مصرباى » . وتم التدبير على أن هذين الأميرين يتصلان بالملك العادل ، ويزينان له الحضور فى وقت معين ، الى منزل « جانى بك » شاد الشرابخاناه — وهو مجاور لمنزل الأمير مصرباى ، عند سوق القبو . وهناك سيجتمع به عدد من أنصاره ومماليكه ، فيزحف بهم على القلعة فيملكها ...

وجاء العادل فى الموعد ، وبينما هو فى حديث وطعام ، اذ دهمه مصرباى الدوادار بجنوده وأحاطوا بالدار . فشعر العادل بالحركة ، وأدرك أنها الغدر والخيانة ، فهب يدافع عن نفسه ، واستطاع الفرار الى سطح المنزل ، ثم قذف بنفسه من أعلاه أملا فى الفرار والنجاة . الا أنه أصيب فوقع ، فأدركه أحـد مماليك جان بلاط وقطع رأسه .

وحمل الأمير « مصرباى » رأس الملك العادل ، فى طبق من النحاس ، وأطلق به المشاعلية ، وهم ينادون فى شوارع القاهرة : « هذا جزاء من يسفك الدماء ويقتل الأمراء بغـير حق » . ودفن فى تربته . وكان ذلك فى ١٣ من ذى القعدة عام ٩٠٦ هـ .

وبموت العادل وتشتيت أنصاره ، تخلص الغورى وحكومته من مناوىء خطير .

الفصل الثالث

الغورى والسياسة الداخلية

فور اعتلاء الغورى عرش السلطنة ، أخذ يدبر أمور دولته ، ويرسم سياسته فى الداخل ، ويستكمل شكل حكومته ، ويعمل جاهدا للقضاء على كل ما يعترض سبيله من العقبات . وقد تبدى فى كثير من تصرفاته ، بعد نظر ، وسعة حيلة ، ورغبة فى تأليف الأتباع .

استرضاء حزب جان بلاط :

وقد عرفنا كيف أنه نفى أتباع الملك العادل طومان باى ، الى الصعيد ، وكيف أنه دأب حتى قضى على العادل نفسه .

وقد اتجه اتجاها واضحا الى استرضاء حزب الملك الأشرف جان بلاط . وهو الحزب المعادى للعادل وعصابته . وذلك ليكسبه الى جانبه ، وبخاصة لأن كثيرا من رجاله كانوا من المتعصبين لسلطنته .

لذلك أمر بالافراج عن الأمراء الذين سجنهم العادل بدمشق ، أو نفاهم بدمياط . فعاد منهم من دمشق : قرقماس ابن ولى الدين ، وأزدمر بن على باى ، وقانصوه بن سلطان چركس ، وسودون الدوادارى وغيرهم . وعاد منهم من

دمياط : برد بك المحمدى الاينالى ، وأرزمك الناشف ، وكثير من الخاصكية ، وغيرهم .

وقد تلقاهم الغورى جميعا ، واحتفل بعودتهم ، وخلع على كثير منهم خلعا نفيسة ، وأسند الى بعضهم مناصب رئيسية — كما سنفصله — .

ورسم باحضار جثة « جان بلاط » من الاسكندرية ، استجابة لرغبة مماليكه . فدفنت بتربة قايتباى . ثم نقلت الى تربته .

***

تشكيل الحكومة :

لم يبعد شكل حكومة الغورى ، فى جملتها ، عما رسم لحكومة المماليك منذ أول عصرهم ، واطرد ذلك فى كلتا الدولتين البحرية والچركسية .

وقد سبقت الاشارة الى أن البلاد كان بها طبقتان : حاكمة ومحكومة . وتتألف الطبقة الحاكمة من السلطان وأمراء دولته وجنوده السلطانية .

وكان الغورى — كما كان أسلافه — ولى الأمر الشرعى ومصدر السلطان ومحور الدولة . وهو يعين الأمراء ويرقيهم ، ويعين غير الأمراء ويعزلهم . ويمنح الاقطاع ويسترده . ويشترى المماليك الجدد وينفق على الجنود السلطانية ، ويقوم بالاصلاحات

وانشاء المرافق ، ويجلس أحيانا للمحاكمات . ومقره قلعة الجبل ، كما كانت مقر أسلافه .

ولما تم اختيـاره للسلطنة ، بايعه الخليفـة أمير المؤمنين المستمسك بالله أبو النصر يعقوب العباسى . فأسبغ على سلطنته الصفة الشرعية ، ثم بايعه القضاة فالأمراء .

ومنذ ولى السلطنة ، وهو لا يفتأ يختار أعوانه فى وظائف الدولة من كبـار الأمراء ، ويوظف أصـاغرهم فى الوظائف المناسبة لهم . ويرقى الى الرتب الأكبر ، من يشاء .

وأسند منصـب الأتابكية — وهو أكبر المنـاصب بعد السلطنة — الى الأمير « قيت الرجبى » . ومنصب الدوادارية الكبرى الى الأمـير « مصرباى » وضم اليـه الأسـتادارية والوزارة . وهى الوظائف التى كان يشـغلها الغـورى قبل سلطنته [1] . وقد زادت أهميـة الدوادارية الكبرى فى أواخر العصر ، حتى أصبحت تلى الأتابكية فى المنزلة .

من هذا ترى أن الغـورى آثر صديقيه اللذين تعصـبا لسلطنته ، بأهم مناصب الدولة .

ثم اختار بعض الأمراء الذين كانوا مسجونين ، وأسـند اليهم بعض المناصب العليا الشاغرة . ومنهم الأمير « قرقماس

---

(١) الأتابك : أبو الجند ، وهى رتبة بمثابة قائد عام — والدوادار : يشرف على رسائل السلطان وبريده ويعـرض عليه المظـالم — والوزير : يشرف على بعض الشئون المالية . والاستادار : يشرف على بيوت السلطان وما يتصل بها من طعام وشراب وخدم .

ابن ولى الدين » فقد رقاه الى مقدم ألف ، وعينه أمير سلاح . و « اصطمر بن ولى الدين » عينه فى امرة المجلس . وغيرهما [1] .

وكان بجوار هذه المناصب : حاجب الحجاب ، والأمير آخور الكبير ، ورأس نوبة النوب . وغيرها مما يليها الأمراء [2] .

***

وكان لكل اقليم داخلى فى مصر — كالشرقية والغربية والجيزة — حاكم يلقب بالكاشف . واختار الغورى كشّافه من غير الأمراء المقدمين .

وكانت السلطنة المصرية ، تضم — كما أشرنا — بلاد الشام وبلاد حلب والحجاز وجزءا من بلاد التركمان وشمال الجزيرة الفراتية . وكانت تنقسم من الناحية الادارية الى « نيابات » . واختار الغورى نوابه فيها من الأمراء المقدمين وغيرهم . ولم يكن يلى نيابة دمشق الا أمير مقدم ، ويقال له « نائب الشام » ، وهو أكبر نواب السلطنة . ويضارع فى منزلته « أتابك العسكر » بالقاهرة .

وقد أجرى الغورى حركة تنقلات وترقيات بين نواب سلطنته ، وملأ الشاغر من مناصب النيابة .

---

(١) أمير السلاح : يشرف على كل ما يتعلق بالأسلحة . وأمير المجلس : ينظم مجالس السلطان ، ويشرف على أطبائه ومن اليهم .

(٢) حاجب الحجاب : يفصل فى قضايا المماليك والدواوين . والأمير آخور الكبير : يشرف على اصطبلات السلطان وما يتعلق بها . راجع المجلد الأول من كتابنا عصر سلاطين المماليك .

والنيابات التى ورد ذكرها فى تاريخ الغورى هى : دمشق وحلب وطرابلس وحماة وصفد وغزة والقدس والبهسنا والكرك وقطيا وطرسوس وألبيرة وعينتاب وسيس وجدة .

ومن هنا يبدو لنا سعة السلطنة المصرية فى عهد الأشرف الغورى . وقد ظلت على سعتها هذه الى آخر عصره .

واعتبرت بعض المدن المصرية النائية عن القاهرة « نيابات » كدمياط والاسكندرية . فكان فى كل منهما « نائب » . وكذلك كان لكل قلعة من القلاع الهامة « نائب » كقلعة دمشق ، وقلعة حلب .

***

واستعانت الدولة فى بعض وظائفها العليا ، بطائفة من أبناء الشعب ، ممن تخرجوا فى المساجد ، وفقهوا الدين أو اللغة ــ كما نوهنا ــ . ففضلا عن وجود الخليفة العباسى ، كان هناك قضاة الشرع الأربعة ــ وقد تعدد القضاة منذ أيام الظاهر بيبرس ــ .

وممن اشتهر من قضاة الغورى : زين الدين زكريا الأنصارى ، ومحيى الدين بن النقيب من الشافعية . وبرهان الدين ابن الكركى ، وعبد البر بن الشحنة من الحنفية . وعبد الغنى ابن تقى ، وبرهان الدين الدميرى من المالكية ، وشهاب الدين الشيشينى ، وشهاب الدين الفتوحى من الحنابلة .

وكان للقاهرة وال للشرطة ، ومحتسب لمراقبة الأسواق

وعدة من الدواوين لكل واحد منها ناظر يعاونه جملة من الكتاب . ومنهم ناظر الجيش وناظر الخاص ، وغيرهما .

ومن طرائف المؤرخ ابن اياس ، أنه فى مطالع حديثه عن حوادث عام ٩٢٢ هـ ، سجل احصائية للهيئة الحاكمة والجهاز الادارى لدولة الغورى على وجه التقريب . فذكر الرتب والمناصب الرئيسية وأسماء شاغليها من الأمراء وغيرهم ، فى العام المذكور .

ومن هذه الاحصائية ، يتبين أن هذه الهيئة — فضلا عن السلطان الغورى والخليفة المتوكل على الله وقضاة الشرع الأربعة — كان بينها ستة وعشرون أميرا من المقدَّمين . منهم ستة فقط يشغلون وظائف عليا . وكان بينها كثيرون من الأمراء الطبلخانات ، منهم اثنا عشر فقط يشغلون وظائف أقل . أما غيرهم من الأمراء فكانوا جمعا حاشدا أكثر من ثلاثمائة أمير . وكان بينها من كبار المباشرين ، تسعة عشر مباشرا ، يطلق على كل منهم لفظ « القاضى » ، وهم رؤساء الدواوين المختلفة ، ومنها ديوان الجيش وديوان الخاص وديوان الدولة ونظارة الاصطبل والحسبة ، ونظارة الخزانة ، الى غير ذلك . ويضاف اليهم كاتب السر وهو صاحب ديوان الانشاء . هؤلاء جميعا عدا خدم السلطان من الطواشية والخاصكية ونحوهم .

هذا الجهاز هو الجهاز الادارى الداخلى . باستثناء كشاف الأقاليم ونواب النيابات ومن يصحبهم من الموظفين .

وقد عقب ابن اياس على هذا الاحصاء بقوله : « وقد كثر العسكر وقل الرزق » .

***

أما الجند ، وهم دعامة الجيش وحفظة الأمن . فكانوا من المماليك الأرقاء المشترين بمال السلطان — مال الدولة — ويطلق عليهم « المماليك السلطانية » . وكانوا الى عهد الغورى طوائف أبرزها الجلبان والقرانصة . ويبدو أن الجلبان هم الذين جلبوا حديثا قبيل الغورى ، والقرانصة قدامى الجنود . وبلغت المنافسة بين الطائفتين فى حب الاستئثار بالمنفعة ، حد النزاع والكراهية ، وكان لذلك أسوأ الآثار فيما بعد .

ويضاف اليهم طائفة يقال لها « أولاد الناس » ، وهم من أبناء الأمراء ، الذين يتطوعون للخدمة فى الجيش ، فتجرى عليهم الرواتب ، ويستدعون عند الحاجة .

وقد استجد الغورى طبقة من المماليك من مشترياته ، عرفت بالطبقة الخامسة . وقد حظيت عنده . وأرهقته بنفقاتها ، فأثارت بذلك ثائرة الطوائف الأخرى على السلطان ، وكانت فى جملة أسباب فتنهم ضده . ويبدو أنه لم يحسن اختيارها تماما ، فقد كان أفرادها من أمم وأجناس شتى ، لا تجمعهم جامعة . فكان منهم التراكمة والأعاجم وغيرهم .

وبلغ عدد جنود الدولة فى عصر الغورى عدة آلاف . وقد قدر المؤرخ نجم الدين الغزى ، جنود الغورى الذين شهدوا

معه معركة مرج دابق بنحو ثلاثين ألف جنـــدى [1] . وقدرهم الشاعر ناصر الدين محمد بن قانصوه بن صـــادق بمائتى ألف، . وذلك فى قوله فى سياق قصيدة :

والتقـــوا فى دابق وهم   مائتا ألف وما غلبوا [2]

***

هذا . وقد جنح الغورى الى تغيير بعض شعارات الدولة وتقاليدها ، عما كانت عليه من قبـــله . فمثلا كان منح رتب الامارة مقصورا على النابهين من معاتيق الجند . وكانت الوظائف العسكرية الكبرى خاصة بالأمراء دون سواهم ، ولا يليهـا ـــ عادة ـــ الا أمير مقدم ألف ، ولم تجر العـــادة بأن أبنـاء السلاطين يـُمنحون رتبة منها أو يقلدون وظيفة . أو يقطعون اقطاعا أو يخاطبون بألقـــاب الامارة ، وانمـــا يقال لكل منهم « سيدى فلان .. » . وكانوا بعيدين عن ولاية أعمال الدولة ـــ غالبا ـــ فى حياة آبائهم .

ولكن الغـــورى خالف هذه التقاليـــد . فأنعم على ولده الناصرى محمـــد بامارة « طبلخاناة » وعيـــنه فى الخازندارية الكبرى فى شوال عام ٩٢٠ هـ . ثم رقاه الى الأمـــير آخورية الكبرى فى ربيع الأول عام ٩٢١ هـ ـــ مع أنه كان فى الثالثة عشرة من عمره ـــ وذلك بدلا من الأمير المتوفى « قانى باى قرا » ؛

---

(١) الكواكب السائرة ج ١ فى ترجمة قانصوه الغورى .

(٢) بدائع الزهور ج ٥ حوادث عام ٩٢٣ هـ .

ومنحه اقطاعه ومماليكه وبيوته أيضا . وأصدر أمره بألا يخاطب بلفظ « سيدى » بل « بالأمير آخور الكبير » ...

ولعله أراد بذلك أن يكل اليه بعض أعمال الدولة للتمرين عليها منذ صغره . ليعده لولاية السلطنة من بعده . هذا فضلا عن أن يهيىء له حياة من المال والترف والجاه والنفوذ ، لم تكن تهيأ لأمثاله من أبناء السلاطين من قبله .

وكان من شعارات المملكة « الدكة » السلطانية . وكانت مقامة بحوش القلعة . وكانت بمثابة « كرسى المملكة » . واعتاد السلاطين من قبل أن يجلسوا عليها للمحاكمات والنظر فى القضايا .

وقد استخدمها الغورى للغرض نفسه حتى عام ٩١٦ هـ . فأمر برفعها وبناء « مصطبة » مكانها تحل محلها . وقد وصف المؤرخ ابن اياس هذه المصطبة بعد تمام بنائها ، فقال :

« انه بناها بالحجر الفص وزخرفها بالرخام السماقى والزرزورى والمرسينى وغير ذلك من أصناف الرخام الملون الفاخر . ونقش بروزها وألبسها بالذهب . وجعل لها افريزا من الرخام الأبيض ، وله رمانتان رخام أبيض . وكسا هذا الافريز بالذهب ونقش عليه اسمه . وصنع فوق هذه المصطبة وزرة من الرخام الملون ، طولها أربعة أذرع . فجاءت هذه المصطبة غاية فى الحسن » .

وكان أول جلوسه عليها فى مستهل ذى الحجة عام ٩١٦ هـ .

وكان كثير الجلوس عليهـا لمزاولة أعمال الدولة وللاستقبالات ونحوها [1] .

هذا . وكان من بين شعارات الدولة « القبة والطير » . ويبدو أنها مظلة من الحرير ، فوقهـا طير مذهب . وكان من التقاليد أن تنشر هذه القبة فوق رأس السـلطان فى مواكبه الرسمية ، ويحملها أكبر الأمراء .

وقد رأى الغورى أن يوضع بدلا من الطير ، هلال ذهبى مخرم . وذلك فى شوال عام ٩٢٠ هـ . وصار هذا شـعارا من شعارات دولته .

***

ومن أهم ما شغل بال الغورى فى سياسته الداخلية ، الفتن والثورات المختلفة التى قام بها عربان البلاد وجنـود الدولة وأمراؤها ، وهى ما تتحدث عنه فى الفصل التالى .

---

(١) حينما ولى الأشرف طومان باى السلطنة بعد مصرع الغـورى ، هدم المصطبة وأعاد الدكة القديمة .

الفصل الرابع

الغورى والفتن الداخلية

وقبل أن ننوه بأبرز حوادث هذه الفتن والثورات ، لا بد من ابداء ملاحظتنا على سياسة الغورى بصفة عامة . من ناحية معاملته لأصحاب الشخصيات الكبيرة فى عصره .

وقد اتجه منذ أول عهده بالسلطنة ، الى التخلص من الشخصيات الخطيرة ، التى يمكن أن تكون مصدر قلق له ، وخوف على سلطنته . ولذلك ظل فى شغل شاغل حتى قتل الملك العادل المخلوع . وأمر الأمير « تانى بيك الجمالى » الذى كان مرشحا معه للسلطنة ، بالخروج الى مكة والاقامة فيها منفيا . فلبث مقيما بها حتى مات هنالك ، على يد الجازانى الثائر فى مكة .

وكان هنالك الأميران « قيت الرجبى » و « مصرباى » ، وهما أكبر أمراء الدولة ، وأقربهم منصبا ، وأدناهم تطلعا الى السلطنة . لقد ظل الغورى يترقب فيهما الفرصة ، حتى واتته فأمكنته منهما . فسجن الأول ، وقتل الثانى . — كما سنفصله — .

وكان الأمير « سيباى » أيضا من أكبر أمراء الدولة . وكان نائبا على الشام ، وكان الغورى يخشاه فى الباطن . ولكن

« سيباى » كان موادعاً له . فظل الغورى يعمل حتى ربط بينه وبينه ، برابطة النسب ، فخطب ابنته لابنه الناصرى محمد . — كما نوهنا — .

والملاحظ أيضا ، أن أكثر أمراء دولة الغورى ، كانوا معه أرقاء للأشرف قايتباى ، فكانوا بذلك زملاءه . وفى الوقت الذى تخلص فيه من أخطرهم ، آخى بينه وبين صغارهم ، وذلك بترقيتهم الى رتب أعلى ، واسناد عليا المناصب اليهم ، ومنحهم من الثقة والرضا ما تطيب له نفوسهم ، فصاروا أقرب اليه طاعة ، وأكثر له خضوعا ، وأقل خروجا . وكان الأمير « قرقماس ابن ولى الدين » أفضل نموذج لهم فى ذلك .

وبصرف النظر عن فتنة قيت الرجبى ومصرباى ، فى أوائل عصر الغورى . وخيانة خاير بيك وجان بردى الغزالى ، فى أواخره ، نجد أن الغورى بسياسته هذه ، عاون — نسبيا — على استقرار السلم فى داخل البلاد ، زمنا لا بأس به .

***

فتن العربان :

وكان فى داخل البلاد آلاف مؤلفة من العربان ، منتشرون فى أرجائها . وكانوا يعيشون عيشة خاصة ولا يكادون يختلطون بأهلها . ويرعى شئونهم مشايخ منهم يعينهم السلطان فى كل ناحية ، ويكونون مسئولين أمامه عنهم ، فى كل ما يتصل بهم ويطلب منهم .

ويبدو أن كثيرا منهم كانوا يعتـــبرون أنفسهم أصـــحاب البلاد ، دون سواهم . وأنهم أحق بها من هـــؤلاء الچراكسة الذين يحكمونها ويستأثرون فيها بالمال والجاه . فكانت بنفوسهم لهم جفوة وحقد ، ورغبة جارفة فى المناهضة . وان كانوا فى جملتهم خاضـــعين للسلطان ، ويبذلون له المعـــونة فى بعض الأحيان ؟

وتحت تأثير نزعاتهم هذه ، انساق كثيرون منهم الى القيام بفتن وثورات لا عـــدد لها . شـــغلوا الســـلاطين بها زمنا ، واضطروهم الى مجاهدتهم والقضاء على نزواتهم . فقتلوا منهم بعضا وأسروا آخرين .

وغلب على العربان فى هذه الفتن ، حب النهب والسلب ، والرغبة فى الاستيلاء على كل ما يستطاع الوصول اليه ، من المتاع والمال والزرع والدواب ونحو ذلك . وكثيرا ما كانوا يفجئون المدن والقـــرى المطمئنة ، فيشيعون فيها الفســـاد ، وينهبون بيوتها وأسواقها . وجرأهم على ذلك ، بعد القاهرة ـــ مقر الحكومة ـــ عن الأقاليم .

***

ويبدو أن الغورى صادفه من مشاكل العربان وفتنهم ، قسط كبير . فزاد ذلك من متاعبه . ولكنه لم يقصر فى مكافحتها والقضاء عليها . وبذل فى سبيل ذلك الرجال والمال .

وقد تعددت فتن عربان الشرقية ، فثاروا فى أعوام كثيرة .

ومن ذلك ثورتهم عام ٩٠٨ هـ . وانضم اليهم عربان من الغربية والصعيد ، وطغوا جميعا على البلاد ، حتى قيل انهم أوشكوا أن يملكوا كثيرا من اقطاعاتها ويطردوا منها أصحابها .

وقد عجل السلطان فأعد عدة تجاريد للقضاء عليها . واختار لقيادة كل تجريدة ، أحد صناديد الأمراء فكان منها تجريدة الى الشرقية بقيادة « قانى باى قرا » وواحدة الى الغربية بقيادة « طراباى » . وأخرى الى الصعيد ، ورابعة الى البحيرة . فكافحتهم كفاحا دمويا رهيبا ، حتى قتلوا منهم نحو ألفين وطهروا البلاد من أشرارهم . وأعادوا اليها الأمن والسكينة . وقيل ان الأمير « طراباى » كان ينشر بالمنشار كل من يقبض عليه منهم ، من رأسه الى قدمه .

وبعد مدة قبض على « ابن بيسار » و « ابن بهيج » ، وكانا من أكبر الثوار المفسدين من عربان الشرقية . فأمر السلطان بشنق الأول على باب زويلة ، وشنق الثانى على باب النصر .

ثم ما لبث أن نشب نزاع شديد بين طائفتين من العربان ، هما عربان « بيبرس بن بقر » وعربان « نجم » شيخ العابد . وانتشرت فى ربوع الشرقية بسبب ذلك ، أهوال شديدة وأخطار فادحة . وقطعوا جسور النيل وهو مشرف على الوفاء ، فأغرقوا الحقول وأفسدوا الزرع .

وأرسل اليهم الغورى ، التجريدة تلو الأخرى للقضاء على نزاعهم وكبح جماحهم ، فلم تفلح حتى اضطر الى ارسال

تجريدة كبيرة ، قوامها خمسمائة جندى ، على رأسها الأمير الكبير سودون العجمى ، ويبدو أن الثوار المتنازعين ، أحسوا بقدومها ، فلاذوا بالفرار . ولم تستطع التجريدة أن تلحق بهم ، فعادت دون جدوى . وكان ذلك فى صفر عام ٩١٣ هـ .

وبعد قليل استطاع كاشف الشرقية أن يقبض على بعض كبار المفسدين فيها . ومنهم « عبيـــد بن أبى الشوارب » ، و «قاسم الغـُريب» ، فوسَّطهما [١] السلطان عند قنطرة الحاجب . ومنهم شيخ العرب «عبد الدايم ابن الأمير أحمد بن بقر » فقـُيد وأودع فى سجن البرج بالقلعة . « وأحمد بن شكر » وكان من كبار العصاة المفسدين ، فقتله الكاشف وسلخ جلده وحشاه تبنا ، ثم أرسله الى السلطان . وكذلك فعلوا بصالح بن قـُرطام» من بنى حرام .

وما فتىء عربان الشرقية خلال عصر الغورى ، يثورون ويعبثون ويسرقون ويقتلون ، حتى علموا بمصرع الغورى فى « مرج دابق » فزادت جرأتهم ، ونشروا الفزع والارهاب فى كثير من البلاد . وكان أنشطهم فى ذلك ، أبناء شيخ العرب « أحمد بن بقر » وأتباعهم . ولقد تصدوا لفلول الجيش العائدة من المعركة ، بين قطيا والصالحية ، فقاتلوهم ونهبوا ما معهم .

***

---

(١) التوسيط : ضرب وسط المذنب بالسيف ، وفصل جسده قطعتين .

ولم يقل عربان الغربيـــة والبحيرة ، وعــربان « عزالة » بالجيزة ، عن عربان الشرقية ، ثورة وافسادا ، واجتراء على الچراكسة وعلى أهل البلاد .

وقد ثار عربان البحيرة فى المحرم عام ٩١٨ هـ ثورة جارفة ، وقاموا بفتنـــة عمياء . وتحالفت منهم ســبع طوائف وأعلنوا العصيان .

وكان بالبحيرة أحـــد مشايخ العـــرب الكبار ، واسمه « الجويلى » ، وكان من أتباع السلطان ويكره الفتنة . فقاوم الثوار مقاومة شديدة ، ولكنهم حاصروه وضيقوا عليه الخناق . فعجل الغورى بتجريدة كبيرة أرسلها اليه بقيادة « طومان باى » الدوادار ، فطاردوا الثوار مطاردة عنيفة ، حتى شتتوا شملهم .

واستطاع الأمير « قانصوه بن سلطان چركس » فى صفر عام ٩١٨ هـ أن يقبض على ثمانية عصاة من أشرار عرب عزالة وكبار ثوارها ، فقطع رقابهم وأرسل رءوسهم الى السلطان ، وكان من بينهم « خضر بن كروان » .

والواقع أن عرب عزالة كانوا آنذاك ، من شر عربان البلاد . وقد نزلوا فى عام ٩٢٠ هـ بالقرب من البدرشين وقاموا بفتنة عمياء طاغية . فسير اليهم الغـــورى ، الأمير « طومان باى » الدوادار ففاجأهم وقبض على جماعة كبيرة منهم . قيل كانوا نحو ثمانية عشر من مشايخهم ، ومائة وخمســين من أتباعهم . وسيَّرهم الى السلطان مصفدين فى الأغـــلال صاغرين . فأراد السلطان أن يشنقهم عن آخرهم ، فخوَّفه بعض الأمراء من أن

ينتقم عرب عزالة ، ويخربوا بلاد الجيزة عن آخرها . ولذلك اكتفى بسجنهم فى سجن المقشرة .

ولم ينس عرب عزالة هذه الواقعة لطومان باى . فانه لما ولى السلطنة بعد مصرع الغورى ، ناصبوه العداء ، وكانوا شوكة حادة فى ظهره وهو يقاتل العثمانيين فى معركة الجيزة . فدهموه هو وأتباعه من الخلف ، وشغلوه هو ورجاله عن التفرغ لمعركته مع العثمانيين . فكانوا فى جملة أسباب هزيمته [1].

مؤامرات الأمراء :

ولم يكن مستغربا أن يقوم بعض أمراء الدولة بتدبير المؤامرات ضد السلطان ، وبالتطلع نحو السلطنة . فان ذلك ــ كما يبدو ــ كان كأنه تقليد من تقاليد دولتى المماليك . وكان ذلك ديدن كبار الأمراء على الدوام ، وأقربهم مكانة الى السلطان . فشغل السلاطين بمكافحتهم وبذلوا فى سبيل ذلك جهدا عظيما .

ومن الأمراء الذين ائتمروا بالغورى : « مصر باى » الدوادار ، و « قيت الرجبى » الأتابكى . ثم « خاير بيك » المعروف بأخى قانصوه البرجى ، و « جان بردى الغزالى » .

وقد كان « مصر باى » من المناوئين للملك العادل طومان باى وسياسته . وقد رأينا كيف تعصب للغورى حتى بلغ

---

(١) هذه أهم فتن العربان . ولهم فى الفتن تاريخ حافل ــ راجع كتابنا عصر سلاطين المماليك المجلد الثانى .

السلطنة . فعينه الغورى فى الدوادارية الكبرى والأستادارية والوزارة عوضا عن نفسه .

غير أنه سرعان ما راودته الأطماع ، فأخذ يأتمر بالسلطنة هو وجماعة من أنصاره . فشاور الغورى فيه بقية الأمراء ، فأشاروا بالقبض عليه وسجنه . فسجن بالاسكندرية فى المحرم عام ٩٠٧ هـ . وبعد قليل استطاع « مصر باى » بمساعدة أعوانه أن يفر من السجن ، وأن يعود الى القاهرة . واختفى فلم يعرف مقره أحد . فأسرع السلطان بالقبض على طائفة من أتباعه ، ومنهم الأمراء : « قانصوه الفاجر » و « تانى بيك الأبح » و « أسنباى » ، وغيرهم .

ثم أعمل الغورى ورجاله الحيلة للقبض على «مصر باى» ، فأوعزوا الى طائفة من الجند بالقيام بثورة مفتعلة ضد السلطان ، لعل ذلك يغريه بالظهور . ولكنه لم يظهر .

الا أن « مصر باى » لم يلبث أن جمع عدداً من أنصاره فى احدى ليالى رمضان عام ٩٠٧ هـ ، وتصدوا للأمراء وقت نزولهم من القلعة عقب افطارهم مع السلطان . فتراموا بالنشاب . وفى الصباح كان السلطان قد حشد لهم كتيبة ضخمة بقيادة الأمير «علان » والى القاهرة . فوقعت بين الطرفين معركة طاحنة ، قتل فيها « مصر باى » شر قتلة .

***

أما « قيت الرجبى » الأتابكى ، فقد سولت له نفسه الوثوب على سلطانه . وانتهز الفرصة فى عام ٩١٠ هـ . وكان الأمير « دولات باى » نائب طرابلس قد شق عصا الطاعة على الغورى . فجرد عليه الغورى حملة تأديبية ، بقيادة « قيت الرجبى » . فما كان من « قيت » الا أنه جمع أعوانه ، وكاتب أمراء الشام ، ومنهم « سيباى » للانضمام اليه . ووضع خطته بحيث انه حينما يصل بتجريدته الى الشام يعلنون به سلطانا ، ثم يزحف بجموعه على مصر فيملكها ، تماما كما فعل العادل طومان باى من قبل .

وكشفت المؤامرة قبل خروج التجريدة . فألقى السلطان القبض على « قيت » وبعض أتباعه ، وصادر أملاكه ، وكان من بينها ستون ألف دينار من الذهب ، وكمية كبيرة من الأسلحة وعدد من الخيول ، ومنسوجات كثيرة . وأرسل الى سجن الاسكندرية [1] .

وبعد مدة رضى السلطان عن « دولات باى » والأمير « سيباى » وهما من أتباع الأتابكى « قيت الرجبى » .

***

---

(١) لبث الأتابكى قيت الرجبى مسجونا فى سجن الاسكندرية ، ولم يرض عنه الغورى أو يطلق سراحه ، حتى آلت السلطنة الى الأشرف طومان باى . فأفرج عنه . وقد شاركه قيت فى معاركه مع العثمانيين عام ٩٢٣ هـ بشجاعة وبسالة نادرة ، حتى قتل فى احدى المعارك .

وكانت آخر مؤامرات الأمراء ، مؤامرة « خاير بيك » نائب حلب . و « جان بردى الغزالى » من نواب السلطنة أيضا . فقد اتصلا أخيرا وفى الخفاء ، بالسلطان سليم ملك العثمانيين ، فى أثناء النزاع القايم بينه وبين السلطان الغورى . ودبرا معه الخطة التى تتم بها هزيمة الغورى .

وقد تمت المؤامرة الى أقصى غاياتها ، عندما التقى جيش الغورى بجيش السلطان سليم ، وجها لوجه فى مرج دابق فى رجب عام ٩٢٢ هـ — كما سنفصله — فخذل الأميران سلطانهما وخانا بلادهما وأظهرا الهزيمة وأطلقا الشائعات — وقد كانا من قادة الجيش — فدارت الدائرة على الغورى وجيشه ، وفلج لوقته وسط المعركة . ومن ثم فتح الطريق أمام العثمانيين ، الى حلب فدمشق فمصر .

وبعد تمام الغزو العثمانى ، عيَّن السلطان سليم «خاير بيك» نائبا عنه فى مصر ، و « جان بردى الغزالى » نائبا عنه فى الشام .

ونعتقد أن الغورى كان ينبغى أن يكون أكثر حيطة وحزما فى معاملة هذين الأميرين ، ولا سيما خاير بيك ونعتقد أن تردده فى مناجزتها كان من أهم الأسباب فى تماديهما ، ومن ثم كان فى جملة أسباب النكبة .

وقد حدث ابن زنبل الرمال أن « خاير بيك » هو الذى زين للسلطان سليم قتال الغورى . وأن المكاتبات فى ذلك بينهما كانت لا تنقطع . وأن أنباء هذه الخيانة المبيتة ، كانت

تصل الى أسماع الناس والأمراء فتفزعهم . وأن الأمير «سيباى» نائب الشام آنذاك ، راسل الغورى فى شأن « خاير بيك » ، وكشف له عن مؤامرته الدنيئة وعن خيانته ، وطلب منه أكثر من مرة ، أن يبعده وينحيه عن العمل . بل طلب اليه أن يبطش به ويقتله . فلم يسمع الغورى لنصيحته وتحذيره . وظن أن « سيباى » يدبر أمرا لنفسه . وقد كان للغورى رمَّال حاذق ، أخبره أن الذى يلى السلطنة بعده ، يبدأ اسمه بحرف «السين» فظن أنه « سيباى » نائب الشام ، ولم يتنبه الى أنه قد يكون السلطان سليما .

وروى ابن زنبل أيضا أن الأمير « سيباى » ، حينما بلغ مع الغورى مدينة حلب ، قبيل معركة مرج دابق ، قبض على « خاير بيك » نائبها ، وجره من طوقه وألقى به بين يدى الغورى وقال له : « يا مولانا السلطان اذا أردت أن الله ينصرك على عدوك فاقتل هذا الخائن » . وكان « خاير بيك » بين يدى سيباى كالشاة بين يدى السبع . وعندئذ قام الأمير « جان بردى الغزالى » وقال : « يا مولانا السلطان لا تفتن العسكر وتبدأ فى قتال بعضهم بعضا وتذهب أخباركم الى عدوكم ويزداد طمعه فيكم وتضعف شوكتكم » . قال ابن زنبل : « وهذه مكيدة من الغزالى » [1] .

***

---

(1) راجع تاريخ النزاع بين الغورى والسلطان سليم لابن زنبل .

ثورات الجنود :

واشتدت ثورات الجنود فى عهد السلطان الغورى ، وبرزت وتكررت بصورة لافتة . وكانت من أهم مصادر قلقه وغضبه ، بل ومن أسباب اعلانه فى أكثر من مرة ، برغبته فى التخلى عن السلطنة ، لكى يولوا فيها من يشاءون .

وكان مبعثها غالبا ، تأخر رواتبهم ونفقاتهم من المال واللحوم ونحوها ، عن موعد صرفها . وكانت تتخذ مظاهرها بتجمهرهم فى طباق القلعة ، وقطعهم الطريق على الأمراء والمارة ، وبنزولهم الى الأسواق للنهب والسلب .

وقد ضاعف هذه النزعات فيهم وقوّاها ، امساكُ الغورى وشحه عن الانفاق الكامل عليهم — مع أنهم عصب دولته وعمادها — وتراخيه ومماطلة مباشريه عن صرفها فى مواعيدها ، وعدم توفير وسائل الراحة والطمأنينة لهم . هذا الى عدم الحزم فى وقف تيار هذه الفتن والثورات ، والقضاء عليها بطريقة حاسمة عاجلة . وذلك بوضع النظم الدقيقة لمقادير هذه الرواتب ومواعيد صرفها ، وتوزيعها فى مواعيدها دون تأخير . مع العمل على تهذيب الجند وتدريبهم وتأليف قلوبهم ، وقطع دابر الأشرار من بين صفوفهم ، الى غير ذلك .

والملحوظ أن الغورى كان فى معالجة هذه الفتن بالذات ، يلجأ فى أغلب الأمر ، الى اعلان غضبه ثم اعتكافه ، أو بذل الوعود المعسولة للثائرين ، حتى يهدءوا ، ثم لا يفى لهم بكل ما يعد . أو الاتفاق معهم على خطة ، حتى يقلعوا ، ثم ينقضها .

وهكذا . الأمر الذى زادهم عليه اجتراء ، وزادهم شرورا وطمعا وشرها فى الحصول على المال والسلع بحق وبغير حق .

وقد كان للغورى عذر فى بدء دولته ، لاتنهاج هذه الخطة ، اذ كانت خزائنه خاوية . ولكنه بعد مدة ، كان لديه من الأموال شىء كثير ، مما عاونه على أن ينفق فى اسراف ، على كثير من منشآته وغيرها . فلم يعد له عذر فى بخله على جنوده ومماطلتهم . ولا سيما أن دولته كانت فى يد القدر ، وعدوها متربص بها ، وهى فى أمس الحاجة الى جنود منظمين مدربين متآلفين مخلصين ، أقواتهم موفورة ، وأوزارهم معدة ، وأسلحتهم شاكية .

***

وبدأت هذه الفتن منذ أول يوم فى سلطنته . اذ توجه المماليك الجلبان الى بيوت بعض كبار المسئولين فأحرقوها أو نهبوا ما فيها . وطالبوا السلطان بدفع « نفقة البيعة » ، وهى منحة تقليدية يدفعها السلطان للجنود عقب توليته .

وقد غضب الغورى لهذه المفاجأة أشد الغضب ، وتضايق أشد الضيق . حتى هم بالاختفاء وترك السلطنة . ثم جنح الى سياسة الوعود والمطال ، حتى يدبر لهم المال اللازم ، وقد كانت أزمته المالية خانقة .

وتقرر فرض ضريبة جديدة على الأملاك والأوقاف ــ كما سنفصله ــ وأخذ أعوان السلطان فى جمع هذه الضريبة . ولكن

ذلك لم يهدىء من ثائرة الجلبان ، فظلوا يثورون من وقت الى آخر ، حتى كان يوم ١٨ المحرم عام ٩٠٧ هـ فانتشروا فى أرجاء القاهرة يعيثون فيها فسادا ، وتجمهرت جماعة منهم فى الرملة ، بغية الوثوب على السلطان أو احراجه . فسلط عليهم السلطان كتيبة من جنوده وأمرائه الموالين له ، بقيادة الأمير « طراباى » فشتتوا شملهم وهزموهم هزيمة منكرة . وقبضوا على جماعة منهم ، أمر السلطان بنفيهم الى الصعيد ، وهددهم بالشنق اذا لم يمتثلوا ، فخرجوا الى المنفى أذلاء صاغرين .

وبعد قليل كان السلطان قد جبى الضريبة ، فأخذ فى توزيع نفقة البيعة تباعا .

***

وتجددت ثورة الجلبان فى شـــوال عام ٩١٣ هـ . فأعلنوا العصيان ، وعزمـــوا على مهاجمة السلطان وهـــو جالس فى الدهيشة بالقلعة . وطالبوه بدفع مائة دينار لكل منهم .

واشتد فزع الغورى وضاق بالسلطنة وبهؤلاء العصاة ، حتى فكر مرة أخـــرى فى النزول عن السلطنة . ولكن الأمير « طراباى » استطاع أن يقضى على هذه الفتنة بعد أن استمرت صاخبة ثلاثة أيام . فهدأت على دَخَل .

وظلت نفوس الجند من أهل الفتنة تنزى فيها عوامل الشر والشره ، حتى كان المحرم عام ٩١٦ هـ ، فانفجرت ثائرتهم بسبب تأخر رواتبهم من اللحم . وطالبوا السلطان بدفع مائة دينار لكل

منهم ، وصرف متأخراتهم من اللحوم وغيرها . ودهموا سوق جامع ابن طولون والصليبة وســوق تحت الربع والبسطيين . فنهبوا الحوانيت ، ونشروا الفزع بين الناس ، وقطعوا الطريق على الســابلة ، حتى أغلقت أســواق المدينــة . وقد قدرت المسروقات بنحو عشرين ألف دينار . ولم يكتف الثوار بذلك ، بل اتصــلوا بالأمير « دولات باى » أمير الســلاح آنذاك ، وعرضوا عليه السلطنة !! ولكنه خشى العاقبة ، فرفض قبولها ، وفر بنفسه ناجيا من شرورهم .

وحشد الغورى أتباعه من الجنود والأمراء ، وعولوا على التنكيل الشديد بمحدثى الفتنة ، وتربصوا بهم . وما ان علم الثوار بذلك ، حتى خافوا المغبة ، وتفلتوا سراعا عائدين الى القلعة .

فأمر الغــورى باستعراضــهم ، فأقســموا له يمين الطاعة والولاء . ومنح كلا منهم ثلاثة دنانير أشرفية . وقد ضاعت المسروقات على أصحابها ...

***

وتجددت الفتن على نحو مما تقدم ، حتى كانت ثورة صفر عام ٩٢٠ هـ . وفيها ثار المماليك الجلبان بالقلعة ، ومنعوا الأمراء من الصــعود اليها . ثم نزلت جمــاعات منهم الى الأسواق فنهبوها . وطالبوا السلطان بأن يعطيهم مالا ، ويصرف مقرراتهم

المتأخرة ، من اللحم وعلف الماشية . وكانوا منذ أربعة أشهر ، لم يُصرف لهم شيء منها .

ونظر السلطان فى أسباب ثورتهم ، ووعدهم بصرف متأخراتهم بعد قليل . وشرع يحاسب المباشرين فى الديوان المفرد ، وهو الديوان المختص بصرف اللحم والعلف . فتبين له أن الديوان مفلس ، وليس به شيء من متحصّلاته .

وما ان علم الجلبان بذلك ، حتى سدروا فى ثورتهم ، وهددوا الوزير « يوسف البدرى » بالقتل ، وهو المشرف على الديوان المفرد . وعولوا على نهب البيوت والأسواق . وراجت القالة بتصميمهم على مهاجمة السلطان .

واستقدم الغورى أعيان الخاصكية وعاتبهم على هذه الفتنة . فشرحوا له أسبابها الأصيلة . وبينوا له انه لما استجد طبقة خامسة من المماليك ، احتاجت الى النفقة . فلم يعد المال المخصص ، يكفى جميع الجلبان . ولهذا تأخرت الرواتب والمقررات من اللحوم والعلف ، فلم تصرف فى مواعيدها . فضلا عن غلو الأسعار ..

نوعدهم بالنظر السريع ، وبالانفاق وصرف المتأخر بعد قليل . فانصرفوا وعملوا على تهدئة الفتنة .

ودبر السلطان أمره ، ثم أخذ يوزع تباعا ما وعدهم به .

ولم يقنع الجلبان بما صنع السلطان ، فعادوا الى الفتنة ، حتى اضطر السلطان لضيق نفسه بهم أن يحتجب ويمتنع عن الخروج الى الصلاة . ثم استقدم اليه أغوات الطباق وعاتبهم

عتابا مرا ، وعرض استعداده لترك السلطنة لكى يولوا فيها من يشاءون . فأخذوا يستعطفونه ويترضـــونه . ثم أمر بصرف ما تأخر من الرواتب .

***

وكانت ثورة شـــوال عام ٩٢١ هـ من أوســـع ثوراتهم وأبشعها . وكان فى مقـــدمة أسبابها ، ضريبـــة « المشـــاهرة والمجامعة » التى فرضها السلطان على التجار . فاضطروا بسببها الى رفع أسعار البضائع ، حتى تعذر على الناس وعلى المماليك أنفسهم شراؤها .

وقد تجمهروا فى طباق القلعة ، وأخذوا يرجمون الناس من نوافذها ، حتى قطعوا الطريق على السابلة .

وأخذ السلطان فى مفاوضتهم ليعودوا الى هدوئهم ويكفوا عن عبثهم . فاشترطوا عليه شروطا أهمها : الغاء هذه الضريبة ، وصرف رواتبهم المتـــأخرة ، وكانت نحو عشرة أشهر . وأن يعزل الوزير « يوسف البـــدرى » والمحتسب « بركات بن موسى » ، لأنهما كانا السبب فى فرض هذه الضريبة .

وأبى السلطان التسليم بهـــذه المطالب . فزادت ثورتهم اتقادا . وترقبوه وقت خروجه لصلاة الجمعة فأغلقوا فى وجهه باب « السبع حدرات » ولم يمكنوه من الدخول الى الحوش السلطانى ، واجترءوا فرجمـــوه من الطباق ، ووجهـــوا اليه أبشع الألفاظ .

وخشى السلطان العاقبة ، فتفلت من احدى نواحى القلعة ، الى مقياس الروضة . وهو فى أشد حالات الغضب والفزع .

واستمرأ الثائرون الفتنة ، ولم يجدوا من يردعهم عنها . فاتجهوا الى حى الصليبية ونهبوا حوانيتها ، وقطعوا الطريق على الناس طول الليل .

وأسرع كثير من الأمراء الى الاجتماع بالسلطان بقصره فى المقياس . وأخذوا يترضونه . فأعلن أنه غير راغب فى السلطنة ، وأشار الى الأمير « سودون العجمى » الأتابكى ، ليولوه مكانه ...

فتلطف به الأمراء ، واستقدموا اليه أغوات الطباق مرة أخرى ، ليوضحوا له أسباب هذه الفتنة . وقد أغلظوا له هذه المرة فى القول ، حتى اتفقوا معه على صرف اللحوم المتأخرة ، وابطال ضريبة المشاهرة والمجامعة ، وعزل الوزير والمحتسب والوالى . — ثم حلفوا له يمين الطاعة والولاء على المصحف الشريف ..... وهدأت الفتنة .

وترقب الجلبان تنفيذ هذه الشروط . ولم يستطع السلطان أن يحققها لهم . ولم يمكنه التخلى عن رجاله ، ولا عن مورد مالى هام ، كان يدر عليه فى كل عام نحو ستة وسبعين ألف دينار .

ولهج المماليك بالعودة الى الثورة . فاستقدم السلطان أغواتهم ورؤساءهم ، وهددهم بالعقوبة الشديدة . ولفت نظرهم الى الموقف الشائك الذى تقفه البلاد فى لحظتها الراهنة ،

والى عدوها الذى يقف لها بالمرصاد . وحذرهم من التمادى فى الفتنة ، ومن تغرير المغرضين من المماليك القرانصة .

وأخرج السلطان من خزائنه نحو خمسة عشر ألف دينار ، اشترى بها أغنـــاما ، لتوزيع لحومها على الجنـــد ، بدلا من متأخراتهم . وأمر بوضع تسعير جبرى للبضائع ، والزام التجار والباعة بمراعاته ، مع الضرب الشديد على أيدى المتلاعبين منهم . ـــ وقبض على بعض المتلاعبين فضربوا وأشهروا فى القاهرة .

***

وبعد فهذه صور من فتن الجنود ، وهى بعض ما عاناه الغورى فى الجبهة الداخلية . وكان جـــديرا به أن يسلك فى علاجها مسلك الحزم والحسم . ولعله اضطر الى سياسة التريث والتردد ، نظرا لما كان يعانيه من المشاكل الاقتصادية ، التى كانت ذات صلة وثيقة بهذه الفتن . فلننظر فى الفصل التالى الى هذه المشاكل ومظاهرها وكيفية علاجه لها .

الفصل الخامس

الغورى والأحوال الاقتصادية

وقد ولى الغورى السلطنة ، وخزائن الدولة خاوية على عروشها ، قد استنفدت الفتن والحروب الأهليـــة والسرقات ، ما فيها . فكان عليه أن يعمل فى عجـــلة ، لتدبير الأموال التى تعينه على ادارة شئون البلاد .

وكان السلطان ــ كما نوهنا ــ المسئول الأول عن الدولة ومرافقها . فهو ينفق على الجنـــود ، ويدفع رواتب الموظفين ، ويمنح الاقطاع ، ويسلّح الجيش ، وينشىء المرافق العامة ، ويعد الحملات ، ويعلن الحروب ، الى غير ذلك .

***

وكان المال يدبر ويجمع من موارد متعددة . ومنها خراج الأراضى الزراعية . وكانت الدولة تستحق خراجها ، عندما يبلغ النيل حد الوفاء ، وهو ســـتة عشر ذراعا . وكذلك عن طريق الضرائب المقررة على الأرض لحمايتها واصلاحها . وما يقرر منها على الأملاك كالدور والحوانيت والحمامات وما الى ذلك . وما يفرض على التجار والباعة لقاء مزاولة البيع والشراء .

ولجأ الغورى بجانب ذلك ، الى الأخذ من ريع الأوقاف ، كما كان يلجأ بعض السلاطين من قبله . واعتمد اعتمادا كبيرا على مصادرة أملاك المتهمين وأموالهم ، أو فرض الغرامات الباهظة عليهم ، والاستيلاء على بعض التركات أو شيء منها . والى جانب ذلك كان يفرض على كشّاف الأقاليم ونواب النيابات مبالغ يجبونها من ولاياتهم ترسل اليه سنويا .

هذا كله فضلا عن الضرائب المقررة والأرباح المستفادة ، من التجارة بين الشرق والغرب ، عن طريق مصر . وكانت مصدر ثروة عظيمة للبلاد ، قبل الغورى .

ويضاف الى ما تقدم ، ريع اقطاعات السلطان ..

***

وكانت البلاد فى عصر الغورى ، تعيش عيشة اقطاعية ، هى امتداد لما كان منها من قبل . وكانت الأراضى الزراعية مقسمة الى اقطاعات ، تختلف باختلاف مساحاتها وغلاتها ومواقعها . ويختص السلطان منها بنصيب ، والأمراء والجنود بنصيب آخر .

ويبدو أن « الروك الناصرى » ، وهو التقسيم الاقطاعى الذى تم فى عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٥ هـ ، كان هو النظام المتبع فى عصر الغورى . مع إضافة تعديلات شكلية أدخلت عليه تباعا فى عهود بعض الملوك [١] .

---

(١) راجع كتابنا عصر سلاطين المماليك ، المجلد الثانى ، تحت عنوان : « ملكية الأرض » .

وأساس هذا التقسيم أن يختص السلطان بعشرة أقسام من الأراضى الزراعية ، ويختص الأمراء والجنود بأربعة عشر قسما من أربعة وعشرين .

على أن السلطان هو صاحب الكلمة فى منح الاقطاع لمستحقه أو شاغله من الأمراء ، وله الحق فى استرداده أو تغييره ، بحسب الظروف .

ويبدو أن الغورى عدّل بعض التعديل فى مساحات بعض الاقطاعات ، فأنقصها عن ذى قبل ، حتى يجد متسعا من الاقطاعات يعالج به الزيادة الطارئة فى عصره ، فى عدد أمرائه وجنوده .

وقد قال ابن اياس : « ان الغورى أحدث شيئا لم يحدثه أحد من الملوك من قبله . وذلك أنه نقص من اطلاقات الأمراء أشياء كثيرة — والاطلاق أرض معفاة من الضرائب — فنقص من اطلاق الأمير سودون العجمى مائتى فدان . وكان قبل ذلك سلخ من اقطاعه جهات بنحو عشرين ألف دينار . لأنه كان لين الجانب فاستضعفه . ونقص من اطلاق بقية الأمراء المقدمين ، كل واحد مائة فدان . ومن اطلاقات الأمراء الطبلخانات كل واحد عشرين فدانا . ومن اطلاقات الأمراء العشرات ، كل واحد خمسة عشر فدانا » [1] .

وقد سلك الغورى مسلكا آخر لعلاج الزيادة فى عدد

(١) بدائع الزهور ج ٤ حوادث شعبان عام ٩١٨ هـ

الأمراء والجند ، لعدم كفاية أراضى الاقطاعات . وذلك بأن أحال بعض الأمراء على بعض الجهات الادارية ، التى تحصّل ضرائب ورسوما مقررة ـــ كديوان الحسبة وديوان الخاص ـــ ليتسلموا من متحصلاتها مبالغ تناسب رتبهم ، بدلا من الاقطاعات .

هذا ، ولم يكن لأحد من أبناء الشعب حق فى أن يُمنَح اقطاعا أو يملك أرضا زراعية . وكان الفلاحون فى قراهم وريفهم أشبه بالعبيد ، يفلحون الأرض لصاحب الاقطاع .

ومن ريع هـــذه الاقطاعات يجبى الخراج وما يقـــرر على الأراضى الزراعية ، لتغطية نفقات حمايتها واصلاحها هى وما يتصل بها من جداول وجسور ونحوها .

ويبدو أن بعض أصحاب الاقطاعات ، كان يسلم أرضه الى عدد من الزراع ، يفلحونها ويقومون على استغلالها لقاء مال يفرضه عليهم ، أو كمية محددة من الغلال يؤدونها اليه . وهذا ما يشبه الايجار .

ويفهم هذا من أن الغورى ، كثيرا ما كان يفرض على هؤلاء الزراع الغرامات الفادحة ، للاصلاحات الطـارئة ، ويسخرهم فى اعداد الجمال أو غيرها من الدواب ، أو تقديم كميات من التبن أو الغلال أو الفاكهة ، فى مناسبة من المناسبات العامة . كقمع فتنة أو اعداد تجريدة ، أو اصلاح جسور متهدمة ، أو نحو ذلك . كما كان يطالبهم أحيانا ، دون أصحاب الاقطاعات ، يدفع الضرائب المقررة على أرض الاقطاع ، معجلة قبل حلول

موعد استحقاقها . فيصـــيبهم من وراء ذلك ضرر بالغ ، حتى ليفضل بعضهم الاختفاء أو الهجرة ، فرارا من المطالبة .

***

وقد واجه الغورى فى أول يوم من سلطنته ـــ فضلا عن أزمته المالية ـــ ثورة جارفة من المماليك السلطانية تطالبه بنفقة البيعة ـــ كما نوهنا ـــ وتكررت ثوراتهم فى سبيل هذا المطلب .

ولم يستطع الغورى أن يلبى طلبهم هذا ، لخلو خزائنه . ولكنه فكر هو وأمراء دولتـــه فى الأمر ، وقلبوا الرأى على وجوهه ليظفروا بحل . ولا سيما أن الأمر كان لا يتعلق بثورة الجند وحدها ، وانما يتعلق أيضا بضرورة ايجاد المال ، بصـــفة عاجلة ، لتدبير شئون البلاد ، ريثما يحين الوقت لجبى الخراج وجمع الضرائب المقررة .

ضريبة على الأملاك والأوقاف :

واضطر الغورى ازاء هـــذا الى التفكير فى فرض ضريبة عاجلة على الأملاك ، وفى أخذ شيء من أموال الأوقاف .

وفى ذى الحجة عام ٩٠٦ هـ اجتمع مجلس الأمراء برياسة السلطان وتشاوروا فى الأمر . واتجه الرأى الى أن يستولى السلطان على أوقاف الجوامع والمدارس ، ويستبقى لها ما يعين على القيام بالشعائر الدينية فحسب . على أن تفرق الأوقاف اقطاعات على الأمراء والجنود ...

وملأ الخبر أسماع الناس ، فكان له صدى مؤلم بعيد المدى فى نفوسهم .

وكان لا بد من عرض الأمر ، على قضاة الشرع ، ليقروه . فجمعهم السلطان بعد أيام ، وهم آنذاك : برهان الدين ابن أبى شريف الشافعى ، وعبد الغنى بن تقى المالكى ، وشهاب الدين أحمد الشيشينى الحنبلى . ولم يحضر قاضى الحنفية عبد البر بن الشحنة . وقيل انه كان ضالعا مع السلطان والأمراء ، فتجنب الحضور ومواجهة زملائه .

واشتد الجدل فى المجلس بين السلطان والقاضى الحنبلى . وانفض المجلس دون أن يوافقوا السلطان على المساس بأعيان الأوقاف . فترك المجلس وهو فى أشد حالات الغضب والحيرة .

وأعيدت الاجتماعات مع تبادل الرأى والمناقشة . حتى أسفرت عن الاتفاق على عدم المساس بأعيان الوقف ، على أن يؤخذ منها ريع سنة كاملة معجلا ، بما فى ذلك جميع أراضى الأوقاف ، لا الجوامع والمدارس وحدها . وعلى أن يؤخذ من أملاك القاهرة وغيرها ، أجرة عشرة شهور كاملة معجلة ، سواء فى ذلك المنازل والربوع والحوانيت والغيطان والمراكب ونحوها ، وكتبت المراسيم بذلك توا ، الى جميع بلاد السلطنة ، حتى الشام وحلب .

وقسم دافعو الضرائب فى القاهرة وضواحيها ، ثلاثة أقسام . وخصص لكل قسم مكان يؤدى فيه الضريبة ، واختار السلطان ثمانية من الأمراء المقدمين ، ومعهم أتباعهم ومعاونوهم ،

لجمع هذه الضريبة من الملاك . فاشتدوا فى اجراءات التحصيل ، حتى أصبح الناس فى كرب عظيم .

ولم يقنع الجنود بهذه الاجراءات ، فتعجلوا السلطان بدفع النفقة ، وهددوه بالفتنة أكثر من مرة . فاضطر الى أن يحث الأمراء على سرعة الجبى والتحصيل . فاشتطوا بدورهم فى التضييق على الملاك ، وتعذيبهم ، حتى أشعلوا نار الغيظ والسخط والكراهية فى نفوسهم .

واضطر الملاك – بدورهم أيضا – الى التضييق على السكان ، والزامهم بالتبكير فى دفع أجرة مساكنهم معجلة ، عن عشرة شهور كاملة ، حتى يوفوا بدفع الضريبة للسلطان .

وبذلك اتسعت دائرة الارهاق والشعور بالظلم ، وكان ذلك منذرا بالشر والثورة على الطغيان .

ثورة القاهريين على الضريبة :

اشتد السخط اذن ، وتفاقم الخطب ، وقلق الناس فاضطرب الأمن ، حتى أغلقت بعض الجوامع ومنعت منها صلاة الجمعة ، وذلك فى ٨ المحرم عام ٩٠٧ هـ .

وأدى السلطان صلاة الجمعة بجامع القلعة . ونزل الأمراء بعد الصلاة معه ، منصرفين الى بيوتهم . فتعرضت جموع حاشدة من أهل القاهرة ، فى مظاهرة عارمة ، للأتابكى « قيت الرجبى » وكان معه الأمير « طراباى » . فشكوا اليه ما أصابهم بسبب هذه الضريبة ، وأن الملاك شددوا عليهم الخناق ،

ليرغموهم على دفع أجرة عشرة شهور معجلة ، وأنهم غير قادرين على دفعها ...

ولم يبال الأمير الكبير ، بهذه الشكاية ، واستمر فى سيره الى داره . وما ان بلغ تجاه بابى زويلة ، حتى كبَّر عليه الثائرون ورجموه بالحجارة هو والأمير « طراباى » فأصيب « طراباى » . ولكن مماليك الأميرين أعملوا سيوفهم فى رقاب الثائرين ، حتى قتلوا بعضهم وجرحوا آخرين . وانطلق النُّهاب والأفاقون وأهل الفتنة ، فى أرجاء القاهرة ، فعاثوا فيها فسادا . وباتت المدينة ليلة ليلاء .

وعاد الناس الى الثورة فى الصباح . وتجمهروا فى حى الصليبة . والتقوا بالأمير « أزدمر بن على باى » وعرضوا عليه شكواهم ، وطلبوا اليه أن يكون وسيطا بينهم وبين السلطان بشأنها . فوعدهم بذلك . وصعد الى السلطان بالقلعة ، وفاوضه فى الأمر . فقرر السلطان تخفيض الضريبة من أجرة عشرة شهور الى سبعة فقط ...

وهدأ الناس . وجمعت الضريبة بوسائل شتى من العنف والقسوة والتعذيب ، وسوء التقدير والمبالغة .

واستطاع الغورى بما جمعه منها ، أن يدفع « نفقة البيعة » لجنوده ، ويشبع نهمهم ... الى حين ..

ثورة الدمشقيين على الضريبة :

وأرسلت المراسيم بجمع الضريبة — كما أشرنا — الى بلاد السلطنة . ومن بينها الشام . وأخذ نائب السلطان بدمشق فى

تحصيلها . فجار على أهلها جورا شديدا ، حتى اضطروا الى الثورة عليه ورجمه ومطاردته ، حتى فر من المدينة .

وقال ابن اياس فى ذلك : « وكادت دمشـــق تخرب عن آخرها فى هذه الحركة » .

***

تحصيل الخراج وفرض الضرائب :

وتتابعت أيام العصر . وصار فرض المكوس بطريق الظلم والارهاق ، وتحصيل الخراج والضرائب ، بوســائل العنف والقسوة ، كأنه تقليد من تقاليد الدولة .

وقد رسم الغورى فى ربيع الأول عام ٩١٨ هـ لكل من كاشف الشرقية وكاشف الغربيـــة ، أن يستخرجا من الزراع ضرائب الحمايات والشياخة وقدوم الكشاف ، عن سنة ٩١٨ هـ الخراجية ، مبكرا ، قبل بدء فيضان النيل وبلوغه حد الوفاء .. وكان الزرع فى الأرض ، قائما على سوقه ، لم يحصد .

فأخذا هما وأعوانهما يفجئون الزُّراع ويدهمون منازلهم ، ويرغمونهم على دفع الضرائب المطلوبة ، بالضرب والتعذيب ، حتى فر كثير منهم واختفى . فقبضوا على نساء الفارين وأبنائهم .

***

وفى الحق ، أن الأزمة المالية قد استمرت زمنا . ولكنها لم تكن تستوجب كل هذا الاستمرار فى فرض الضرائب . وفى

تحصيلها بالقســوة والمغالطة أحيانا . وبخاصة اذا راعينــا أن الغورى وجّه كثيرا من المال الذى جمعه ، الى انشاء قصور وقاعات وبساتين .

ومن الضرائب التى فرضها ، ضريبة « الموجَّب » . وقد كانت مفروضة فى عهد بعض أسلافه ، وكانت نصفا من الفضة على كل أردب يباع من القمح أو الشعير أو الفول . ـــ فجددها الغورى ، وجعلها ثلاثة أمثال ما كانت عليه . وكان من جراء ذلك زيادة الأسعار ، وضيق الناس وشكايتهم .

وضريبة « المشاهرة والمجامعة » وقد فرضها على التجــار والباعة لمزاولتهم شئون البيع فى الأسواق ، وعلى أصــحاب الطواحين أيضا . وكانت تدفع شهريا لمحتسب القاهرة . فصار يجمع منها سنويا نحو ستة وسبعين ألف دينار . وقد خصص محصّلها لعدد من الأمراء عوضا عن اقطاعاتهم . اذ لم تكن لهم اقطاعات .

وقد كانت هذه الضريبة سببا جديدا فى زيادة أســعار البضائع جميعها ، وشكوى الناس ، وثورة الجنود معا .

وترجح أمرها بين الالغاء والابقاء أكثر من مرة . وكثيرا ما كان الغورى يقرر الغاءها ، تقربا الى الله وزلفى حينمــا ينزل بالبلاد طاعون جارف ، لعل الله بذلك يكشفه عنها . فاذا كشف الله البلاء ، عاد السلطان فأعادها ...

ومن الضرائب أيضــا ضريبة « مشاة العربان » ، وهى مستجدة فى عهد الغورى . وكان السلاطين من قبله يتحملون

نفقات مشاة العربان الذين ينضمون فى الزحف مع تجاريدهم . ولكن الغورى قرر أن يتحملها عربان النواحى المختلفة ، وذلك فى عام ٩٢٠ هـ . اذ فرضها باهظة مرهقة على أهل جبل نابلس وغزة ، وصفد وطرابلس ، وأهل حلب وحماة ودمشق .

وقيل انه فرض على أهل جبل نابلس مائة وأربعة وعشرين ألف دينار . وسلط عليهم الأمير « ماماى » الخاصكى ، أحد مماليكه ، لجبيها ، فأرغم شيوخهم على معاونته ، فأطلقوا فى الناس نار الجور والفزع .

وكلف السلطان الأمير « قانى باى قرا » حين خروجه بالحملة الأولى الى حلب ، أن يحصّل هذه الضريبة من أهـل حلب وحماة . فجمع منهم نحو ثمانين ألف دينار .

ومع أن هذه الضريبة كانت خاصة بالعربان ، لم يُعفِ السلطان منها الفلاحين والزراع فى مصر ، ففرض عليهم ضريبة مماثلة .

❋ ❋ ❋

المصادرات والغرامات :

ولا بد لنا من القول ، ان المصادرات والغرامات المالية ، كثرت واستمرت فى عصر الغورى . واذا قلنا انها أصبحت موردا أساسيا للخزانة الشريفة ، لا نكون مبالغين .

وكان الغـورى عجلا اليها مسرعا ، بحق وبغـير حق ، وبتحقيق وتحر ، أو بدونهمـا . بل ربمـا قررها عند الظن والحدس . واستشرى نهمه فى ذلك ، لما رأى خزائنه تثرى من

ورائه ، حتى خرج عن حد المألوف عمن سبقه من السلاطين ، وصارت المصادرات طابعا مميزا لعهده .

وعرف الناس فيه هذه الخصوصية . فقويت فى بعضهم شهوة المرافعة والادعاء والكيد . واتهم بعضهم بعضا — ومن بينهم مباشرو الدواوين — فكانوا يتقـدمون اليه بالمطاعن والمزاعم والاتهامات ، بعضهم ضد بعض ، بالسرقة والاختلاس والتزوير واخفاء المال والاثراء الفاحش والكسب الحرام .

وكان أحد الناس — مثلا — يتقـدم الى السلطان باتهام فلان — قاضيا أو مباشرا أو محتسبا أو غير ذلك — بأن فى ذمته للدولة ، كذا من المال . فيقبض عليه السلطان ويسجنه ويصادره ويحاسبه ويعذبه .

وامتد خطر المصادرة الى الخـوندات [1] والسيدات ، بل والى الزمّامين والأغوات والخدم والمغنيات [2] .

ودلل ذلك فى جملة ما دلل عليه ، على أن بين هؤلاء جميعا ، لصوصا وسرّاقا ، نهبوا أموال الشعب ، وزوروا فى حساب الدولة . ولا يمنع هذا أن كثيرا من هذه الاتهامات كانت ظالمة وكاذبة وكيدية .

ومن الطريف أن نروى لك أنه تقدم الى السلطان فى رجب

---

(١) الخوند : السيدة من زوجات الأمراء أو السلاطين .

(٢) راجع بعض أنباء المصادرات فى بدائع الزهور ج ٤ حوادث صفر عام ٩٠٧ هـ وشوال عام ٩١٢ هـ وصفر عام ٩١٨ هـ ورمضان عام ٩١٨ هـ ورجب عام ٩١٩ هـ .

عام ٩٠٧ هـ ، شخص يقال له « صلاح الدين بن الجنيد » ومعه قوائم بأسماء جماعة من أعيان التجار والناس ، ومن بينهم بعض شهيرات الخوندات والسيدات . وزعم أن فى ذمتهم للدولة أموالا . وتعهد للسلطان أن يحاسبهم فيثبت فى ذمتهم نحو مائتى ألف دينار . واشترط على السلطان أن يخلع عليه خلعة ، وأن يمنحه دينارا على كل رأس عبد أو جارية ، يثبتها فى ذمة هؤلاء ....

وانصاع السلطان لادعائه ، وكاد يخلع عليه ويأذن له باثبات مزاعمه ، لولا أن الأمر شق على بعض الأمراء ، فحذروه من أن تكون فتنة كبيرة . فقبض على الرجل وقطع لسانه وضربه بالمقارع ، وأشهره فى القاهرة عريانا . فكادت العامة ترجمه . ثم ألقى به فى السجن .

وفى عام ٩١٢ هـ وقعت حادثة مماثلة ، وكان بطلها « أبو الخير المرافع » التزم باستخراج مائتين وخمسين ألف دينار من أناس يعرفهم . وهى فى ذمتهم للدولة . وكاد السلطان يستجيب له ، ثم تغير خاطره عليه فعاقبه ونفاه .

***

وجرى الحادثان على غير قياس . فقد كان الغورى سريع الاستجابة لمثل هذه الاتهامات ــ كما قلنا ــ .

وفى عام ٩٠٨ هـ اتهم السلطان جملة من كبار المباشرين ، منهم ناظر الجيش ، وناظر الاصطبلات ، وناظر الزردخاناه بأن

فى ذمتهم للدولة أموالا متأخرة من متحصلات وظائفهم . فقبض عليهم وقـرر على كل منهم مبلغا معينا يدفعـه . فظلوا تحت الحراسة حتى أدوا ما قرره عليهم .

وكان « على بن أبى الجود » من أعيـان رجال الدولة ، ومن أصحاب الحظوة لدى الغورى ، حتى أسند اليه عدة من الوظائف الكبيرة ، فصـار لديه نحو مائة نقيب ، يعينونه فى عمله ، ويقدمون اليه شكايات الناس للفصل فيها ، وحاجاتهم لقضائها .. وعظم جاهه وخيف سلطانه ..

قيل : وعن طريق ما كان يدفعـه الناس له من الأجـور والرشوة ، فجر بعضهم على بعض ، واقتص العبد من سيده ، وطغت الزوجة على زوجها ، وكاد العدو لعدوه . وصار بابه مقصودا ، حتى بز أبواب الأمراء ..

وكان الغورى قد اتفق معه على أن يدفع من متحصّلات وظائفه ، للخزانة الشريفة ، اثنى عشر ألف دينار فى كل شهر . لذلك اشتط فى التحصـيل والجمع ، ليوفر المـال للسلطان ولنفسه . فطاش سهمه وجار وظلم ، حتى كرهه الناس .

ويبدو أنه لم يسعف السلطان بكل ما طلب ، وتغير خاطره عليه . فقبض عليه فى آخر رمضان عام ٩٠٨ هـ هو وخـدمه وحاشيته . ووضع نساءه تحت الحراسـة ، وصادر حواصله وبيوته ، وفرض عليه غرامة مالية فادحة . وسلمه الى المحتسب « بركات بن موسى » ليتولى عقابه ، فعذبه عذابا شديدا . ثم

شنق على باب زويلة ، وظلت جثته معلقة عليه ثلاثة أيام ، ثم دفن .

***

ومن صودروا « صلاح الدين بن الجيعان » ناظر الخزانة ، عام ٩١٤ هـ . ادعِيَ عليه أن فى ذمته للدولة أربعمائة ألف دينار . والمعلم « يعقوب اليهودى » وكيل دار الضرب ، وادعى عليه بأن فى ذمته ستين ألف دينار ، فى العام نفسه . و « خوند أصل باى » سرية الأشرف قايتباى وأم ولده الملك الناصر ، عام ٩٠٧ هـ وفرضت عليها غرامة مالية فعجزت عن دفعها ، ثم آل أمرها الى نفيها بمكة فماتت هناك . والمغنية «هايفة اللذيذة» بحجة أن لديها حليا للكراء ، فقرر عليها خمسة آلاف دينار باعت حليها فى سبيل سداد جزء منها . الى غير ذلك .

***

مصادرة التركات :

وهذا ضرب آخر من المصـــادرات ، ومورد من مـــوارد الخزينة . وقد كانت اقطاعات الأمراء تئول بعـــد وفاتهم الى السلطان فيمنحها من جديد لمن يشاء ، بحسب النظام المتبع . أما ما عداها من الممتلكات ، كالمنازل والرباع والأسواق والحوانيت والحمامات ، وطرائف المقتنيات من التحف والأوانى والحلى والمنسوجات وغيرها ، فكانت تئول الى الذرية .

ولا يعدم السلطان ، اذا أراد ، وسيلة الى النفاذ اليها ، بعد وفاة مالكها ، لكى يستولى عليها أو على شىء منها ، أو يفرض عليها غرامة مالية يدفعها الورثة .

وقد مات الأمير « أزدمر الدوادار » عام ٩١٣ هـ ، فصادر السلطان تركته ، ووضع حاشيته وغلمانه ومباشريه تحت الحراسة ، حتى يؤدوا ما فرضه عليهم من الغرامة المالية .

ومات الخواجا « عيسى القادرى » فى مكة . وعاد أبناؤه الى القاهرة عام ٩١٨ هـ ففرض عليهم غرامة مالية قدرها مائة ألف دينار . فتقدموا اليه بشكوى يوضحون فيها فداحة هذه الغرامة ، وعجزهم عن دفعها . فغضب وأقسم برأسه أن يأخذ منهم مائتى ألف دينار .

ومات الأمير « خاير بيك الخازندار » عام ٩٢٠ هـ ، وكان زوجا لأخت السلطان الغورى ، فوضع السلطان تركته تحت الحراسة ، وأمر الأمير « طومان باى » الدوادار ، والمحتسب « الزينى بركات بن موسى » بأن يتوليا ضبطها .

ويبدو أن ذلك كان تمهيدا للاستيلاء عليها ، أو فرض غرامة على ورثتها . وقد تبين أن بينها من التحف والجواهر واليواقيت وغيرها ما قدر بأربعمائة ألف دينار .

وكان السلطان لما مرض بارتخاء جفونه ، أودع ــ على ما قال ــ لدى خاير بيك هذا ، مبلغ خمسمائة ألف دينار . ثم

مات خاير بيك دون أن يوصى باعادة هـذه الوديعـة الى السلطان ..

الى غير ذلك من المصادرات .

***

ضرائب التجارة بين الشرق والغرب :

وكانت مصر تجبى ضرائب على المتاجر المتبادلة بين الشرق والغرب والمنقولة عن طريقها ، وكانت تبلغ أحيانا ما يساوى ثمن البضائع نفسـها . فكانت بذلك موردا من أهم مـوارد خزائنها ، وسببا فى مقدمة أسباب رخائها .

وقد قلت هذه الضرائب ، وأخذ هذا المورد يغيض ، فى عصر الغورى ، بسبب كشف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح ومحاربتهم للمتاجر المصرية فى سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندى ، ولتحول كثير من المتاجر بين الشرق والغرب ، عبر جنوب افريقية وسواحل الأطلنطى .

وقد كان لذلك أسوأ أثر فى اقتصاديات البـلاد وقص دخلها ، وتتابع أزماتها المالية ، الأمر الذى دعا الغورى — ولا ريب — الى أن ينشط لجمع المال بأى طريق ، ليعوض الخسارة التى أصابت دخل دولته .

ويصف ابن اياس فى حوادث المحـرم عام ٩٢٠ هـ حالة الكساد الضاربة فى الثغور المصرية آنذاك ، بقوله :

« وكان فى تلك الأيام ، ديوان المفـرد وديوان الدولة

وديوان الخاص ، فى غاية الانشحات والتعطيــل . فان بندر الاسكندرية خراب ، ولم تدخل اليه البضائع فى السنة الخالية ، وبندر جدة خراب بسبب تعبث الافرنج على التجار فى بحر الهند . فلم تدخل المراكب بالبضائع الى بندر جدة نحوا من ست سنين ، وكذلك جهة دمياط » .

***

ضرائب على الكشاف ومشايخ العربان والنواب :

وقد قال ابن اياس فيما يتصل بذلك ما نصه عن السلطان :

« انه كان ولى الكشّاف ومشايخ العربان على البلاد . ويقرر عليهم الأموال الجزيلة ، فتتفــرده الكشاف ومشايخ العربان على بلاد المقطعين والأوقاف ، فيأخـــذ كل منهم المثل أمثالا . فضعف أمر الجند من يومئذ وتلاشى حال البلاد .

وكذلك كان يولّى النواب على أعمال جهات البلاد الشامية والحلبية ، ويقرر عليهم الأموال الجزيلة فى كل سنة بقدر معلوم ، فيأخذونه من الرعية بالظلم والعسف . فكان كل أحـــد منهم يتمنى الرحيل من بلاده الى غيرها ، من عظم الظلم الذى يصيبهم من النواب » .

ونعتقد أن هذه الضرائب كانت ضرورية ومنطقية بالنسبة الى السلطان المسئول عن ادارة شئون البلاد والسهر على أمنها وانشاء مرافقها النافعة .

ولكن الذى أبرز ما فيها من الارهاق والظلم ، مضاعفة عـماله لها ، وجبى المثل مثلين ، وتحصيلها بالعسف والقسوة .

***

وقد عول الغورى منذ عام ٩٢٠ هـ على أن يباشر أعمال الخزانة بنفسه ، ليعرف بالضبط ما يدخل اليها ، وما يخرج منها ، حذرا من المغالطات والسرقات . وشدد فى عرض كل أمورها عليه ، وكتابة الايصـــالات والبيانات اللازمة عـــا يصرف منها يوميا .

***

وقد صحب هذه الأحـــوال الاقتصادية ـــ كما رأينا ـــ انتشار موجات الغلاء فى عدة سنين ، انتشـــارا أدى الى قلق الناس وشكايتهم ، والى قيام الفتن والاضطرابات ، واختفاء السلع ، ونشوب النزاع بين الجمهور والباعة .

وكان فرض الضرائب الاضـــافية على التجار والبـــاعة ، واصدار العملة الجديدة أحيانا ناقصة أو مغشوشة ، بالنسبة للعملة القديمة المتداولة ، من أهم أسباب هذا الغلاء .

وكانت موجات الغلاء تعالج عادة بوضـــع تسعير جبرى يلزم به التجار ، مع معاقبة المخالفين منهم . وكذلك ربط العملة الجديدة بالقديمة برباط ما .

ومن سنوات الغلاء : سنة ٩١٢ هـ ، ٩١٤ هـ ، ٩١٨ هـ ، ٩١٩ هـ ، ٩٢٢ هـ .

ومما يذكر فى غلاء سنة ٩١٩ هـ أن القمح الجديد كان قد ورد الى القاهرة . وعرف الناس أن الغـــورى جدّ فى شراء محصول القمح من الأسواق ، ليرسله الى بلاد الشام ، رغبة فى الاتجار فيه . وكانت بلاد الشام حينذاك ، تعانى غلاء شديدا ونقصا عظيما فى القمح ، حتى بيع الاردب منه ـــ على ما قيل ـــ بسبعة دنانير أشرفية .

وقد عانت مصر بسبب ذلك ، أزمة غلاء طاحنة . وثارت الجماهير وتعرضت للسلطان فى يوم ١٤ صفر من ذلك العام ، وهتفوا فى وجهـــه : « الله يهلك من يتسبب فى الغـــلاء على المسلمين » .. فوضع تسعيرا جبريا ألزم به التجار ..

***

بهذا وذاك نستطيع تصور بعض جوانب الحياة الاقتصادية فى عصر الغورى . ولكن لن يغيب عن انصافنا أن اضطراره الى اعداد تجاريده المختلفة فى داخل البلاد وخارجها ، وولوعه بانشاء كثير من المرافق ، كان من أهم العـــوامل فى اتجاهاته الاقتصادية .

الفصل السادس

الغورى ومنشآته الداخلية والخارجية وإصلاحاته

تقصد بالمنشآت ، ما يبنى من القصور والدور ، وما يمهد من الميادين ، وما يُعبَّد ويزرع ويغرس من البساتين ، وما يشيد من المساجد والمدارس ، وما يُعلَّى من الجسور أو يُعقد من القناطر ، أو يشق من الجداول ، الى غير ذلك ، مما يعتبر من المرافق العامة أو الخاصة ، سواء أكانت فى داخل البلاد أم فى خارجها من توابع سلطنتها . هـذا عدا المنشآت الحربيـة كالأساطيل والمكاحل والأبراج والحصون .

ويعتبر الغورى أحد سلاطين مصر الذين أولعوا بالبنـاء والتشييد ولوعا بارزا . ولم يقتصر اهتمامه على ما أنشأه فى القاهرة ، بل امتد الى سواحل الشام وبلاد الحجـاز ، وبلاد الهند . بالرغم من مشاكله الاقتصادية .

ومن أبرز منشآته :

مسجده بالشرابشيين وقبته ومدرسته :

وهو مسجده المشهور حاليا بالغورية بالقاهرة . وقد أخذ الغورى يعد لبنائه بعد ولايته بقليل . وكان يُطلق على هـذه الجهة التى أنشىء فيها « حى الشرابشيين » .

وكان فى مكان المسجد قبل بنائه ، مدرسة بناها الطواشى « مختص » الذى كان رأس نوبة السقاة فى دولة الملك الظاهر قانصوه . فلما ولى الغورى أمر السلطنة ، غضب على «مختص» هذا ، فقبض عليه وصادره ، وفرض عليه غرامة مالية . فقدم اليه « مختص » هذه المدرسة فى جملة ما دفعه من الغرامة . فهدمها الغورى وفسح المكان من حولها لبناء مسجد عظيم . وضم اليها أرض سوق الجملون وما حولها من الأسواق .

وقد بالغ الغورى فى زخرفة بناء المسجد ، حتى بدا غاية فى الحسن والرونق . وأقيمت له مئذنة بأربعة رءوس .

قال ابن اياس :

« ولكن شنعت عليه الناس ، لأن مصروف عمارة هذه المدرسة كان من وجوه المظالم ومصادرات الناس . وأخذ غالب رخامها من أماكن شتى بأبخس الأثمان . وقد خرب قاعة « شموال اليهودى » الصيرفى ، وأخذ رخامها وأبوابها . وفعل مثل ذلك بعدة قاعات . وقد سمى بعض اللطفاء هذه المدرسة « المسجد الحرام » لما وقع فيها من غصوبة الأرض ومصروف العمارة من مال فيه شبهات » .

وقد تمت عمارة المسجد ليلة عيد النحر عام ٩٠٨ هـ . واحتفل السلطان بذلك احتفالا شائقا ، وزيّن حى الشرابشيين زينة عظيمة امتدت الى باب زويلة . واختار السلطان قاضى قضاة الحنفية عبد البر بن الشحنة لكى يكون خطيب هذا المسجد .

وكان القائم على العمارة « اينال » شاد العمائر ، فأنعم عليه السلطان بامرة عشرة . كما أنعم على المهندسين والبنائين والمرخّمين والنجاريين وغيرهم من الصناع ، بخلع ومنح مالية .

***

ثم استبدل السلطان قيسارية كانت تقع تجاه هذا المسجد ، ليبنى عليها مدرسة ومدفناً له وقبة وصهريجا ومكتبا لتعليم الصغار . وقد كملت هذه العمارة عام ٩١٠ هـ . وعقدت فوق المدفن قبة عظيمة ، غلفت بالقاشانى الأزرق .

وقد نقل الغورى الى مدفنه هذا ، أثراً للنبى عليه الصلاة والسلام ، كان محفوظا فى مسجد الصاحب بهاء الدين بن حنا المطل على النيل فى حى مصر العتيقة . ونقل معه مصحفا شريفا مكتوبا بماء الذهب ، كان محفوظا بالخانقاه البكتمرية بالقرافة .

وكان لليوم الذى نقل فيه الأثر والمصحف ، رجة ضخمة فى أرجاء القاهرة . لقد احتفل بذلك احتفالا عظيما . وساروا بهما فى موكب حاشد بالجماهير ، يتقدمه قضاة الشرع الأربعة ، والأتابكى « قيت الرجبى » والأمراء المقدمون ، وأرباب الطرق الصوفية بأعلامهم المختلفة ، وهم يذكرون الله سبحانه وتعالى .

وعين السلطان قاضى قضاة الشافعية حينذاك ، برهان الدين ابن أبى شريف ، شيخا لهذه المدرسة . وقرر أن يُدرَّس درسان فى اليوم ، فى هذه المدرسة ، أحدهما فى الصباح الباكر

يلقيه ابن أبى شريف . والثـانى وقت العصر ، يلقيـه الشيخ محب الدين الحلبى امام السلطان . وعين بها عددا من الصوفية .

***

الميدان تحت القلعة :

وعنى الغورى بميدان القلعة عناية قصوى . اذ حوله الى جنة فسيحة وارفة الظلال ، توافرت فيها كل أسباب الراحة .

وقد ابتدأت عمارته فى صفر عام ٩٠٩ هـ ، فعلّى حوائط سوره ، وغطى أرضه بطمى كثيف ، بلغ سمكه نحو أربعـة أذرع . وذلك فى جهته الغربية . وسوّى أرضـه وفرش بها النقارة .

ثم أقام بها مبيتا ومقعداً لتقام به المحاكمات . كما أنشـأ قصرا عظيما — فى الجهة الغربية من الميدان — وبنى بجـواره منظرة جميلة وأمامها بحرة عظيمة ، وغير ذلك من المكملات .

وحول هذه الأبنية ، أنشأ بستانا عظيما ، نقل اليه مجموعة كبيرة من سائر الفواكه والأزهار والرياحين . ثم أجرى اليـه الماء من السواقى التى بباب القرافة بحدرة البقر .

ثم أنشأ على باب هـذا الميـدان ، قصرا آخر مطلا على الرملة . ومهد طريقا للسير من القلعة الى الميدان بسلالم متصلة الى ذلك القصر المطل على الرملة . وأقام للميدان بابين أحدهما كبير والآخر صغير ، ووضع على كل منهما سلسلة ضخمة من الحديد .

وقيل ان السلطان أنفق على ذلك كله نحو ثمانين ألف دينار وصارت أكثر مواكبه واحتفالاته واستقبالاته ومحاكماته تجرى فى هذا الميدان :

***

وكان الغورى مولعا بغرس الأشجار ورؤية الأزهار ـــ كما رأيت ـــ وقد أوصى باحضار غراس من بلاد الشـــام لمختلف الأزهار والرياحين والفاكهة . وفى عام ٩١٢ هـ وصل اليه من بلاد الشام نحو مائة وخمسين حملا من الصـــناديق الخشبية ، تحتوى على أشجار ذات جذور بطينها . وهى ما بين تفاح شامى وكمثرى وسفرجل وقراصية وكروم ، وأشجار مزهرة ما بين ورد أبيض وسوسن وزنبق ، وغير ذلك من لطائف الشـــام . ومعها شجرة جوز هند .

وأمر الغورى تواً بغرسها جميعا فى بستان الميدان . وبعد قليل ازدهر بها البستان ، حتى صار فى جملة منازه مصر . وصار الغورى يقضى به الساعات الطويلة للرياضة والمتعة .

قال ابن اياس عن هذا البستان : « عاينت به وردا أبيض ذكى الرائحة . وهو غير أنواع الورد التى بمصر . وقد نقل من الشام ، وكان يطرح فى أوان الصيف ، والنيل فى قوة الزيادة » .

وكانت القلعة ومنشآت الميدان تسقى من مجراة قـــديمة ، تمتد من ناحية درب الخولى بمصر العتيقة . فأبطلها الغـــورى ، وشرع فى أواخر عام ٩١٢ هـ فى بناء مجراة جديدة عوضا عنها .

واختاروا مكانا تبدأ منه عند موردة الخلفاء بالقرب من الجامع الجديد ــ بمصر العتيقة على ما يبدو ــ فأنشئوا هناك بئرا لها مسرب من النيل ، وأقيمت عليها سواق تقّالة . ومن هناك أنشئت المجراة على قناطر معقودة على دعائم متصلة الى الميدان والقلعة ، توصل اليهما المياه . وقد استغرق العمل فى ذلك نحو عامين .

قال ابن اياس : « فجاءت هذه المجراة من العجائب والغرائب . ولكن صرف على بنائها ما لا ينحصر من الأموال » .

ثم أمر ببناء ثلاثة صهاريج ، تمتلىء بوساطة سواق تنقل اليها مياه النيل ، وخصصها للمماليك « الرماحة » . وأقيمت البحرة الكبيرة فى وسط بستان الميدان . وكان طولها نحو أربعين ذراعا . ومن حولها أقيمت عدة مناظر ومقاعد تطل على البستان. وصارت البحرة تملأ يوميا من النيل ، وما يفيض منها يسقى منه البستان .

وفى عام ٩١٥ هـ بنى « مقعدا » سلطانيا ، طوله ستون ذراعا ، وعرضه عشرون . أقامه بالميدان خلف البحرة مطلا على الحوش السلطانى . وكان « قبطيا » أى بدون أعمدة . وجمّله بقطع من الرخام الثمين . واتخذه مكانا لطعامه وشرابه فى بعض الأحيان ، ولجلوسه .

***

اصلاح قاعات القلعة :

ووجه الغورى اهتماما كبيرا الى قاعات القلعة الشهيرة ، ومنها قاعة البيسرية وقاعة العواميـــد . فأصلحها وجدد بناءها وزودها بألوان من الزخارف والزينة .

قال ابن اياس ما مؤداه : « انه قد وقع بسبب هذا التجديد غاية الضرر . وذلك لأن السلطان أمر القـــاضى شهاب الدين أحمـــد ناظر الجيش ، أن يخلع له رخام قاعة والده ــ ناظـــر الخاص يوسف ــ وهى القاعة التى تسمى : « نصف الدنيا » . وكان رخامها مثمنا ونفيسا ندر أن وجد له مثيل . وكان ناظر الخاص يوسف قد أفنى عمره فى بناء هذه القاعة وتجميلها . وقد نقل الغورى هذا الرخام الى القاعة البيسرية وقاعة العواميد وغيرها من مجدداته بالقلعة . وقد تألم أبناء ناظر الخاص تألما بالغا » .

واهتم الغورى باصلاح بناء الدهيشة . وسدّ البحرة التى كانت بها ، وفرش أرضها بالرخام الملون . وفى سبيل ذلك أيضا حل رخام قاعات كاتب السر أبى بكر بن مزهـــر ، فجمّل به سقوفها وأبوابها وغير ذلك .

***

خان الخليلى :

وهو المشهور بحى سيدنا الحسين الى اليوم . وكان الأمير « جهاركس الخليلى » هو الذى أنشأه فى عهـــد الملك الظاهر

برقوق . ثم آلت ملكيته الى الغورى ، فهدمه فى سنة ٩١٧ هـ وأنشأه من جديد انشاء جميلا ، وبنى به مخازن وحوانيت .

***

قصر المقياس ومسجده :

وشيد الغورى قصرا عظيما ببسطة المقياس ، كان ينزل اليه من آن الى آن . وأصلح ما فسد من بناء المقياس . وأقام مسجدا بجواره تجاه دار النحاس .

خليج الزعفران :

واهتم بحفر هذا الخليج ، وأتمه فى عام ٩٧١ هـ . وامتد من أول القناطر الجديدة الى قناطر الأوز الى سد الخشب . وقد فرض ضرائب فادحة على الأراضى التى تروى من هذا الخليج . وقيل انه أخذ من أربابها خراج سنة كاملة ، فجمع من ذلك نحو خمسين ألف دينار .

ومن أعماله :

تجديد عمارة ميدان المهارة ، وهو قريب من قناطر السباع ، آنذاك . وجدد سبيل المؤمنى اذ عقد له سقفا بالحجر المنحوت . وأنشأ بجانبه حوضا وساقية ، ومغسلا عاما للأموات وميضأة . وأصلح جسر أم دينار بالجيزة ، وكان قد تهدم عام ٩١٥ هـ فى ليالى وفاء النيل ، فسخر جماعات من الناس فى اصلاحه . وحفر بئرا بقبة يشبك وأقام عليها السواقى لسقى المسافرين . وأنشأ

فى ثغر السويس عام ٩٢٠ هـ فنـــدقا عظيما وجملة من الدور والحوانيت والآبار والأسواق ، لينتفع بها قصّاد السويس من الحجاج وغيرهم .

ومن منشآته : الوكالة والحواصل خلف مدرسته . وربع وجملة حوانيت خلف مسجده . وربع وعدة حوانيت أخرى بسويقة عبد المنعم ، وسوق لبيع الرقيق بالقرب من خان الخليلى وأنشأ قنطرة بنى وائل وقنطرة الحاجب وغيرهما من القناطر .

***

ومن منشآته بالعقبة ومكة :

أنه أقام فى العقبة عام ٩١٤ هـ فنـــدقا عظيما وعدة بروج وفساق ، لراحة الحجاج . وبنى رصيفا على البحر . وأنشأ عدة مخازن لايداع الودائع . وقد قام بهذه الأعمال « خاير بيك المعمار » مزودا بطائفة من المهندسين والبنائين . وقد زودت هذه الانشائيات بطائفة من الجنود للحراسة ، تتجدد مرة فى كل عام .

وأمر الغورى كذلك باصلاح طريق العقبة ، واقامة برج بعجرود ، وبرج آخر بنخل ، وآخر بالأزلم . وحفر عدة آبار فى طريق مكة . الى غير ذلك ، مما يعاون على راحة الحجاج .

وفى عام ٩١٥ هـ أرسل خاير بيك المعمار فبنى بمكة مارستانا ــ مستشفى ــ ورباطا ، وقام بتبليط الحرم المكى وحفر بئر جديدة .

***

منشآته الحربية :

ونعنى بها الأبراج والمكاحل والأساطيل الحربية وما يتصل بذلك . وقد عانى الغورى فى سبيل انشائها وتجهيزها كثيرا من المشقة ، وأنفق عليها أموالا طائلة . وأرسل رسله أكثر من مرة ، الى بلاد العثمانيين وغيرها ، لشراء كميات من الأخشاب والحديد والحبال ونحوها من لوازم السفن . وكان يبنى سفن أساطيله غالبا فى ميناء السويس أو رشيد ، أو فى النيل على رصيف بولاق . وقد زار الغورى مدينة السويس فى رحلة عام ٩٢٠ هـ للكشف على الأغربة الحربية التى أمر بتشييدها هناك . ـ كما سننوه ـ . وكانت المكاحل يتم صنعها فى مسابك خاصة ، ثم تسحب الى بعض الجهات النائية عن القاهرة لتجربتها . ولم يكن الغورى متوانيا فى الكشف على المكاحل وتشجيع صناعها ، ومعاودة زيارتهم بين الآن والآن ، وحثهم على سرعة انجازها . ومن أخبار هذه المنشآت :

المكاحل :

وهى مدافع تقذف قطع الحجارة أو البارود الى مسافة بعيدة . وكانت تصنع من النحاس أو الحديد . وقد اهتم الغورى بصنعها اهتماما بارزا . وبدأ ذلك ـ على ما يبدو ـ عام ٩١٣ هـ . وكان لها مسبك عظيم مقام خلف ميدان القلعة . وتتم تجربتها فى جهة تربة الملك العادل بالريدانية غالبا . وقد جربت مجموعة منها أمام السلطان فى رجب عام ٩١٣ هـ خلف القلعة . وفى عام

٩١٦ هـ تم صنع خمس عشرة مكحلة ، فجـربت بالريدانية ، فتفتتت أجزاؤها وتطاير نحاسها . فتألم الغورى لذلك ألماً بالغا . وأعيد السبك وأعيدت التجربة ، حتى كان عام ٩١٨ هـ وفيه سبكت سبعون مكحلة تقريبا من أحجام مختلفة ، كان منها أربع كبار ، يبلغ وزن كل منها نحو ستمائة قنطار شامى ، وطولها نحـو عشرة أذرع . وقد سحب منها سـبع وخمسـون الى الريدانية ، وأجريت تجربتها بحضور السلطان والأمراء وجموع حاشـدة من الناس ، فلم يخطىء منها الهدف الا واحـدة أو اثنتان .. وكانت علامة الاصابة أن تقذف المكحلة حجرها الى قـرب بركة الحاج . وكان يوم عرضـها وتجربتها من الأيام المشهودة .

وفى عام ٩٢٠ هـ تم صـنع نحو أربع وسـبعين مكحلة جديدة بعضها من النحاس وبعضها من الحديد . وتمت تجربتها بنجاح كسابقتها .

الأبراج :

وعنى الغورى ببناء الأبراج المطلة على الطرق والسواحل ، لحمايتها من المعتدين . وكانت تقيم بها الحاميات لأداء هذه المهمة وللمراقبة أيضا . وكان الغورى يبعث اليهـا بين الآن والآن بعض الخبراء الفنيين من الأمراء للكشف عليها وتفتيشها . وبلغ من اهتمامه بها أن قام بزيارة الاسكندرية ورشيد فى عام ٩٢٠هـ و ٩٢١ هـ ، وكشف على برج قايتباى وغيره من الأبراج هناك وفتش ما فيها من الأسلحة والمكاحل .

وقد أنشأ أبراجا بالطينة فى عام ٩١٥ هـ . وأبراجا أخرى برشيد وبالعقبة ــ كما نوهنا ــ .

وعلى ســاحل جدة وينبع أنشأ ســورا ذا أبراج منيعة لحمايتهما من الافرنج العابثين بالســواحل والتجارة المصرية . كما أنشأت حملته البحرية بقيادة الأمير « حسين الكردى » عدة أبراج على سواحل الهند ، للغرض نفسه .

سفن الأسطول :

وأمر الغورى بتشييد عدد من السفن الحــربية فى مدينة رشيد ، وقد باشر صنعها الأمير « محمد بيك » قريبه ، بمعاونة علاء الدين ناظر الخاص . وذلك عام ٩١٤ هـ . وشيدت ستة أغربة من هذه السفن ، وأجريت فى نهر النيــل الى الجزيرة الوسطى تجاه بولاق . وجربت بجهة طرا ، بحضور السلطان . ثم بنى « غليونا » كبيرا مزودا بمجموعة عظيمــة من الأسلحة والمدافع . وقد تم بناؤه فى رصيف بولاق . وجرب فى طرا أمام السلطان فى عام ٩١٧ هـ . وفى العام نفسه تم بناء عدة سفن أخرى فى رصيف بولاق أيضا .

ورأى الغورى ضرورة بناء أسطول بحرى كبير بالسويس ، ليتعقب الفرنجة فى البحر الأحمر والمحيط الهنــدى ، ويحمى منهم هذه السواحل ، وما يعبر فيها من المتاجر المصرية . وليمد بها تجريدته الثانية الى سواحل الجنوب والهند . وقد تم بناء عشرين سفينة كبيرة ، وزودت بالمكاحل النحاسية والحديدية

وما تحتاج اليه من القادة والجنود ومختلف الأسلحة والأدوات . وكان ذلك فى ربيع الثانى من عام ٩١٩ هـ . وقام الغــورى بزيارة السويس لمشاهدة هذه السفن واستعراضها ، وذلك فى المحرم عام ٩٢٠ هـ . فأنزلت أمامه الى البحر .

وكان المشرف على بنائها الريس « سلمان العثمانى » . وقيل ان نفقاتها بلغت أكثر من أربعمائة ألف دينار [١] .

---

(١) عدّد ابن اياس منشآت الغورى وأجملها فى بدائعه جـ ٥ حوادث رمضان عام ٩٢٢ هـ ، وهى كثيرة جدا .

الفصل السابع

الغورى وسياسته الخارجية وحروبه

مما لا ريب فيه ، أن الغورى منذ تربعه على عرش السلطنة ، اتجه الى حياة من السلم والاستقرار الداخلى . وكان حريصا على أن يمتد ذلك الى كل طرف من أطراف سلطنته ، مع محافظته على كل شبر منها محافظة كاملة ، لا يشوبها التفريط قط .

لذلك كان شديد الاهتمام بمعالجة مشاكله الداخلية والقضاء على الفتن المحلية ، مع الدفاع عن كل جزء من أجزاء السلطنة ، يعتدى عليه أى عدو خارجى . فكل تجاريده كانت فى سبيل الدفاع عن بلاده وتجارتها . ولم يفكر قط فى توسيع هـذه السلطنة وزيادة رقعتها .

ولعله اضطر الى انتهاج هـذه السياسة اضطرارا . فقد كانت سلطنته ، مع امتـداد بلادها وتوابعها امتدادا كبيرا ، أصبحت تتاخمها دول ناشئة طامعة ، كالدولة الصفوية فى بلاد العجم والعراق ، والدولة العثمانية فى آسيا الصغرى .

وفى الوقت الذى كانت فيه عوامل التفرقة والتفكك تعمل عملها فى داخل سلطنته ، ميراثا ثقيلا باقيا من عهود أسلافه ، كانت عوامل الوحدة والنظام والطاعة والحماسة تسود الدولتين الأخريين .

فلم يكن للغورى ، والحالة هــذه ، بد من التزام جانب المحافظة والدفاع عن بلاده وتوابعها ، دون سياســة الهجوم والتوسع . فاذا كان قد جرد تجريدة أو كتّب كتيبة أو أعد حملة ، فقد كانت ضرورة الدفاع عن البــلاد وعن مصالحها وأهلها ، هى التى أملت عليه ذلك .

وبحكم متاخمة مصر وتوابعها لكثير من الدول ، وبحكم موقعهــا بين الشرق والغرب ، وصــلاتها التجارية فى الداخل والخارج ، صار الغورى كثير الاتصال بدول العالم الخارجى ، بل لعله كان أكثر ملوك زمانه اتصالا بدول هذا العالم .

***

السفارة بينه وبين الخارج :

وقد كانت القاهرة فى أيامه ، مسرحا مليئا بالوافدين اليه من الأمم الأخرى ، ضيوفا عليه أو لاجئين اليــه ، أو سفراء عن ملوكهم يحملون اليــه مكاتباتهم فيما يخص البلدين من السياسة أو غيرها ، ويقدمون اليه هــداياهم ليؤكدوا المودة ويوثقوا الصلة . وكذلك كان هو بالمثل يبعث اليهم بسفرائه ومعهم مكاتباته وردوده وهداياه .

وأكثر ما كانت السفارات ، بينــه وبين ملوك العثمانيين واسماعيل شاه الصفوى ملك العجم ، وملوك الهند وأمراء فرنسا والبندقية .

ويقول ابن اياس فى حوادث ربيع الثانى عام ٩١٨ هـ :

« ومن العجائب أن فى هذا الشهر اجتمع عند السلطان نحو من أربعة عشر قاصدا . وكل قاصد من عند ملك على انفراده . فمن ذلك قاصد شاه اسماعيل الصوفى ، وقاصد ملك الكرج . وقاصد ابن رمضان أمير التركمان . وقاصد من عند ابن عثمان ملك الروم . وقاصد يوسف بن الصوفى خليل أمير التركمان . وقاصد صاحب تونس ملك الغرب . وقاصد من مكة . وقاصد الملك محمود ـ صاحب الهند ـ . وقاصد ابن درغل أمير التركمان . وقاصد من عند نائب حلب . وقاصد من عند حسين الذى توجه الى الهند ـ أى قائد الحملة البحرية ـ . وقاصد ملك الفرنج الفرانسة . وقاصد البنادقة . وقاصد على دولات . وغير ذلك قصاد من عند جماعة من النواب » [1] .

ووفد الى الغورى فى عام ٩٢٢ هـ ، وفد كبير من الحبشة . فاستقبلهم استقبالا عظيما . وسار رجال هذا الوفد فى موكب حافل الى القلعة للقائه ، وصحبهم البترك . وكانوا ستمائة رجل . وكان كبيرهم ابن ملك الحبشة ومعه خمسة أمراء آخرون .

قال ابن اياس ما مؤداه : « ان ملابسهم وأشكالهم لم تكن مألوفة فى مصر . فمنهم من كان عاريا مكشوف الرأس ، وعلى

---

(١) راجع المجلد الثانى من كتابنا عصر سلاطين المماليك تحت عنوان « السفارة » .

رأسه خصلة شعر . ومنهم من كان فى أذنه قرط من الذهب ، وفى أياديهم أساور ذهبية .

وكان كبيرهم يلبس خوذة على رأسه من المخمل الأحمر ، وفيها صفائح ذهبية ذات فصوص ، وعلى رأس الخوذة درة كبيرة مثمنة ، وعليه أثواب حريرية ملونة . وكان أمراؤهم يلبسون أثوابا من الحرير الملون ، وعلى رءوسهم شدود حريرية . وكانت بقيتهم قد شدوا أوساطهم بحوائص كهيئة الزنانير .

وقد أحضروا معهم كراسى حديدية عالية ، ليجلسوا عليها بحضرة السلطان ، فلم تمكنهم من ذلك رءوس النوب .

وقد قبلوا الأرض للسلطان أكثر من مرة ، وقدموا اليه مكاتبة من ملكهم ، وكانت موضوعة فى غلاف من الذهب — على ما قيل — وكان سبب الزيارة الرغبة فى الحج الى كنيسة القيامة بالقدس ، ورجوا السلطان فى أن يأذن لهم فى ذلك .

وقد أمر السلطان باخلاء ميدان المهارة الواقع قرب قناطر السباع ، ليضربوا هناك خيامهم . فظلوا بها ثلاثة أيام فى راحة وطمأنينة ، تحت حراسة الحراس .

وقيل انهم أمضوا نحو تسعة شهور فى سفرهم من بلادهم . وقيل انهم قدموا هدية ملكهم الى السلطان فقومت بنحو خمسة آلاف دينار . وهى دون ما كان يتقدّم من قبل لسلاطين مصر من ملوك الحبشة . والسبب فى ذلك ما كانوا فيه من ضعف » .

وعلاقات مصر بالحبشة ترجع الى زمن طويل قبل عصر الغورى [1] .

***

واعتاد الغورى أن يرسل أيضا الى غيره من الملوك والحكام ، قصَّادا وسفراء ، يفاوضونهم فيما بين الطرفين من مسائل السياسة وغيرها . وممن سفَر له : الأمير تانى بك الخازندار ، وتغرى بردى الترجمان ، والأمير شاديبك نائب المهمندار . والأمير تمر باى الهندى . والأميران أقباى الطويل واينال باى دوادارسكين ، وكانا من سفرائه الى السلطان سليم ملك العثمانيين .

واعتاد كذلك أن يلاقى سفراء الدول فى حفلة رسمية ، ويرسل اليهم من يصحبهم اليه من رجاله ، وينزلهم فى أحد القصور ، ويكل حراستهم لفريق من جنوده ، ويدعوهم الى مآدب حافلة تكريما لهم ، ويحرص على ابراز عظمة مصر وقوة جيشها أمامهم ، ويسليهم بضروب مختلفة من التسلية كاحراقات النفط ، ولعب القَبَق ، وألعاب الرماحة ، ومصارعة الكباش والثيران ، وغير ذلك [2] .

---

(١) بدائع الزهور ج ٤ حوادث المحرم عام ٩٢٢ هـ ــ مصر فى عصر دولة الجراكسة ص ١٥١ وما بعدها .

(٢) راجع بدائع الزهور حوادث جمادى الأولى عام ٩٠٨ هـ ، وذى القعدة عام ٩١٢ هـ ، وشعبان عام ٩١٣ هـ ، وربيع الثانى عام ٩١٨ هـ ــ على سبيل المثال ــ .

ونعرض فى السطور التالية لأهم مظاهر السياسة الخارجية للغورى وما صحبها من تجاريد وحـــروب . وقد كانت أهم علاقاته ، مع الحجاز والهند والصليبيين ، ومع الدولتين الصفوية والعثمانية .

***

علاقته ببلاد الحجاز :

كانت بلاد الحجاز فى جملة بلاد السلطنة المصرية . وكان الظاهر بيبرس قد ثبَّت ســـيادة مصر عليها منـــذ مطالع حكم المماليك ، وأرغم أشراف مكة على ذكر اسم سلطان مصر فى الخطبة والسكة . وأكد المنصور قلاوون هذه السيادة ، هو ومَن بعده من ســـلاطين مصر ، الى زمن الأشرف قانصـــوه الغورى .

وكانت مصر صاحبة الشأن فى تعيين أمير مكة وأمير ينبع ، وغيرهما من أمراء الحجاز . وكانت ترسل الى الحجاز فى كل عام ، مع ركب المحمل والكسوة الشريفة ، عددا من جنودها يسمونهم « المجاورين » ومعهم أحد الأمراء قائدا لهم ويسمى « باش المجاورين » . فيقيمون بمكة عاما لحمايتها ورعاية الأمن فى الحجاز ، ثم يتبدَّلون فى العام التالى .

وظلت مصر سنويا ترســـل الى أهـــل الحجاز ، الأموال والأقوات والكسى ، معونة لهم . وتنشىء بمكة وغيرها من الأماكن الحجازية ، المرافق العامة النافعة كالأسوار والأبراج والآبار

والمستشفيات . وتقوم بتأمين الطريق بينها وبين مصر والشام وتحمى طرق الحجاج . وكانت تهتم بميناء جدة بخاصة ، لما كان له من الأهمية التجارية بين مصر وبلاد الشرق .

وكانت حماية الحرمين الشريفين ، تعد مفخرة لمصر وسلطانها ، وكسبا أدبيا لهما فى وسط العالم الاسلامى .

***

واستمر وضع بلاد الحجاز ، على ما وصفنا ، بعد أن ولى الغورى سلطنة مصر . فبذل لها من الاهتمام والرعاية مثل ما كان يبذل لها من قبله . وأهم ما قام فى سبيله من العقبات ثورة الجازانى وأتباعه .

ثورة الجازانى :

وكان الجازانى هو شريف مكة عام ٩٠٧ هـ . ويبدو أن نفسه آنذاك نزعت الى الثورة ضد الغورى ليتخلص من تبعيته لمصر .

وخرج ركب المحمل المصرى فى ذلك العام ، وأميره « أصطمر بن ولى الدين » أحد الأمراء المقدمين . وكان أمير الركب الأول « الناصرى محمد بن خاص بك » . وكانا أول أميرَىْ حج ، بعد ولاية الغورى .

وأرسل الغورى مع « أصطمر » عددا من الجنود ، وخلعة نفيسة الى « الجازانى » ليستمر أميرا لمكة ، على أن يؤدى سنويا خمسين ألف دينار . فرضى « الجازانى » بذلك .

غير أن « أصطمر » لم يصطنع الحكمة فيما بعد . ويبدو أنه كان قد أوعز اليه بمراقبة « الجازانى » ونشاطه . فكاتب أخاه « الشريف بركات » ليجمع أتبـاعه من العـربان حتى يتعاونا معا على القبض على « الجازانى » . وكانت بين الأخوين عداوات ومناهضات شديدة .

وأحس « الجازانى » بما يدبر ضده . فهرب من مكة وتبعه كثير من رجاله ، وقطعوا الطريق على الحجاج ، وتعرضوا لركب الشام ، فنهبوه وقتلوا من فيه من الرجال ، وأسروا من فيه من النسـاء ، وعاونه فى ذلك « يحيى بن سـبع » أمير ينبع ، و « مالك بن رومى » أمـير خليص ، وجمـاعات كبيرة من عربان بنى ابراهيم بالحجاز .

وبعد أن انتهت مناسك الحج ، خرج « اصطمر » ومعه « الشريف بركات » وجنـودهما ، الى « الدهنـة » ، لقتال « الجازانى » ومن تجمع حوله من عربان بنى ابراهيم . فأرسل « الجازانى » الى « اصطمر » أن يتنحى عن القتال ، وأن يتركه هو وأخاه « بركات » ليصـفيا ما بينهما من الحسـاب .. فلم يستجب له وأبى الا قتاله .

وتدفقت المعونات المختلفة على « الجازانى » من « يحيى ابن سبع » وغيره . ووقعت بين الفريقين معركة طاحنة انهزم فيها « أصطمر » ومن معه ، وقتل كثير من جنوده وغلمانه . ونهب « الجازانى » ركب المحمل المصرى وعروا نساءه . فعاد الى مصر وهو فى أتعس حال .

واجترأ العربان فى طريق عودة الحجاج ، اثر هذه الهزيمة ، فنهبوا ما تبقى معهم ، وردموا الآبار فى طريقهم فهلك كثير منهم من الظمأ . ولقيتهم جموع من عربان بنى لام ، فأساءوا اليهم ، وعوقوهم عن الوصول الى العقبة حتى دفعوا لهم ثلاثة آلاف دينار .

كان لهذه الحوادث أسوأ أثر فى نفس الغورى . فاستقدم أميرى الحج ، ووبخهما ، ونفى « أصطمر » الى دمياط . وفرض على « الناصرى محمد » غرامة مالية قدرها خمسة عشر ألف دينار . وقبض على قاضى الحنفية عبد البر بن الشحنة وأمر بنفيه الى قوص ، فقد اتهم باتصاله بيحيى بن سبع أمير ينبع — وكانا صديقين — وبأنه أرسل اليه يحذره من بطش السلطان وغدره . ثم شفع بعضهم فى القاضى فأطلق سراحه .

***

واستمر « الجازانى » فى عصيانه وثورته وعبثه ببلاد الحجاز . وأوقع بأخيه الشريف « بركات » وهزمه هزيمة منكرة فى شعبان عام ٩٠٨ هـ . وكان هذا ضالعا مع الغورى ، وخاضعا لأوامره .

ثم جمع « الجازانى » عربان بنى ابراهيم ، وهجم بهم على مكة ، ولعب فى أهلها بالسيف ونهب أموالهم . وتطاول بنو ابراهيم على الناس فيها ، حتى كان أحدهم اذا غرس رمحه على باب من بيوت مكة ، خرج منه أهله وتركوا له البيت وما فيه . وربما اعتدى عليهم بنو ابراهيم وقتلوهم .

ونكّل « الجازانى » بمن يقيم بمكة من المصريين : تنكيلا شديدا ، وطالبهم بمبالغ من المـــال ، ومنهم الأمير « تانى بيك » الجمالى » و « الشهابى أحمد بن العينى » .

ازاء هذا أعد الغورى حملة قوية قوامها ستمائة جندى ، بقيادة الأتابكى « قيت الرجبى » ، فخرجت الى الحجاز فى موسم الحج عام ٩٠٩ هـ . وقاتلت « الجازانى » وعصابته مقاتلة شديدة ، حتى قضت على كثير من أتباعه ، وطردت عربان بنى ابراهيم من مكة ، وقبضت على اخوة الجازانى وبعض أتباعه ، وكان من بينهم « الشريف بركات » وأخـــوه « قايتباى » . ومهدت الأمور فى مكة ، وأعادت اليها الأمن والطمأنينة . أما « الجازانى » فقد فر هاربا من وجهها .

وعاد الأمير « قيت » بتجريدته الى القاهرة بعد هذا الظفر العظيم ، فقابله القاهريون بأحلى مظاهر الترحاب ، واستمرت أفراحهم سبعة أيام . وقدّم « قيت » الأسرى الى السلطان ، فشكره لحسن بلائه ، وعتب عليه لفرار « الجازانى » . واستبقى معه الأسرى ، فسجنهم فى منزله تحت حراسته .

غير أن هؤلاء الأسرى هربوا من بيت « قيت » بعد مدة ، فكان ذلك مثار غضب السلطان ، وقد وقع نزاع ومشادة بسبب ذلك بين « قيت » و « قرقماس » اذ اتهمه قرقماس بأنه هو الذى سهّل لهم سبيل الهرب .

ولم يهدأ الغورى لفرار « الجازانى » ولم تسكن ثائرته وبث من خلفه الأرصاد والعيون ، حتى دس اليـــه من احتال

عليه حتى دخل الى الحرم المكى ، فقبض عليه جنود حامية مكة وقتلوه وأراحوا الناس من فتنه وجرائمه .

***

فتنة يحيى بن سبع :

قتل الجازانى وترك حلفاءه يروحون ويغدون على مسرح الفتنة والعبث . فقد ازداد فساد « يحيى بن سبع » و « مالك ابن رومى » وعربان بنى ابراهيم . واتخذوا مكة مراحا لهذا الفساد . ولم يتعظوا بما أصاب « الجازانى » . واستشرى خطرهم فى عام ٩١١ هـ حتى قطعوا طريق الحجاج . وأصبح من المتعذر على قاصد بيت الله الحرام ، أن يصل الى مكة دون أن يتعرض للنهب والسلب والقتل .

واضطر الغورى لعدم أمن الطريق ، أن يمنع الناس من الخروج الى الحج فى هذا العام فى سائر بلاد السلطنة المصرية . وهذه هى المرة الوحيدة التى لم يُسمح لهم فيها بالخروج طول عصر المماليك . أما الكسوة والزيت والأموال ، وما الى ذلك مما جرت العادة بارساله الى الحرمين الشريفين كل عام ، فقد أرسلت عن طريق البحر .

وأصدر السلطان مرسوما بعزل « يحيى بن سبع » وتولية « هجار بن دراج » مكانه أميرا على ينبع ــ وكان أبوه دراج أميرا عليها من قبل ــ ثم أعد تجريدة جديدة قوامها خمسمائة جندى ، أسند قيادتها الى الأمير « خايربيك بن اينال » ، أحد المقدمين ، لتأديب «يحيى بن سبع» ، وتنفيذ مرسوم السلطان .

وخرجت التجريدة فى رجب عام ٩١٢ هـ ومعها المحمل الشريف والأمير « هجار » ، الى الحجاز . فالتقت بعربان بنى ابراهيم وبأتباع « يحيى بن سبع » الذى فر هاربا . فقتلت التجريدة منهم ما لا يحصى عددا ، وأنزلت بهم الهزيمة . وأرسلت من قتلاهم نحو خمسين رأسا الى القاهرة ، فأشهرت على رءوس الرماح ، ثم علقت على أبواب القاهرة .

والتجأ « يحيى بن سبع » الى عربان « العنزة » وهم فريق من بنى لام ، منازلهم قرب ينبع . وكان الشريف « بركات » مع اخوته ، قد وصلوا الى مكة ، عقب هروبهم من السجن ببيت الأتابكى « قيت الرجبى » . فاتصلوا بقائد الحملة المصرية وهو « خايربيك » وعقدوا معه محالفة على أن يقاتلوا معا « يحيى ابن سبع » وأتباعه . وجمعوا نحو ألف من العربان فرقوهم فى مواضع مختلفة . واتجه « خاير بيك » بعسكره الى مكان يسمى « السويق » قريب من ينبع . فالتقى بيحيى بن سبع ومالك ابن رومى وحميضة أخى الجازانى ، فى معركة طاحنة ، قتل فيها من الفريقين ما لا يحصى . وحاقت الهزيمة فى النهاية بيحيى ابن سبع وحلفائه ، ففروا هاربين . فباغتهم عربان الشريف بركات ، وأعملوا فيهم السلاح وأمعنوا فيهم قتلا وأسرا . الا أن « يحيى بن سبع » استطاع الفرار مرة أخرى .

وبلغت أنباء النصر سمع الغورى فابتهج وخلع على المبشرين بها خلعا ثمينة . وزينت القاهرة سبعة أيام . وعادت التجريدة فى ربيع الأول عام ٩١٣ هـ ، وفى صحبتها نحو ثمانمائة رأس من

القتلى ، فأشهرت على الرماح . وكافأ السلطان رجال التجريدة على حسن بلائهم .

وقد مهدت هذه المعارك بلاد الحجاز ، وطهرتها من كثير من ثوارها وعصاتها ، وأمنت طريق الحج . وقد عيَّن السلطان الشريف « بركات » أميرا على مكة ونائبا عنه فى بلاد الحجاز .

وتتبع الشريف بركات ، أعوان « يحيى بن سبع » ، فقتل منهم « مالك بن رومى » وطائفة من رجاله ، وأرسل رءوسهم الى السلطان .

واستسلم « يحيى بن سبع » بعد مدة ، وأرسل ابنه الى السلطان فى المحرم عام ٩١٤ هـ يطلب له الصفح والأمان . فصفح عنه وأمنه . غير أنه لم ينس قط خروجه عليه وعصيانه . فقد مات « هجار » أمير ينبع الجديد ، بعد قليل ، فالتمس « يحيى بن سبع » من السلطان أن يعيده الى امارته فرفض ، وعين فيها ابن هجار .

وحسنت الصلة بين الغورى والشريف بركات ، واطمأن اليه الغورى فى ادارة شئون الحجاز . ولبث فى منصبه حتى شهد الغزو العثمانى .

***

علاقته ببلاد الهند :

يبدو أن صلة مصر ببلاد الهند ، فى عصر المماليك ، بدأت فى عصر الناصر محمد بن قلاوون . اذ أرسل اليه أحد ملوك

الهند يستمنح الخليفة العباسى بمصر ، تفويضا بملكه ، ليكسبه الصفة الشرعية . وقد استجاب له الناصر محمد والخليفة ، وبعثا اليه التفويض المطلوب مع رسول خاص . وقد نقش هذا الملك اسم الخليفة على سكة بلاده ، وذكر اسمه فى الخطب المنبرية . وقد ساعد هذا الوضع على توثيق الصلة بن البلدين [1] .

وتكررت هذه الواقعة فى عهد الأشرف قايتباى . وأرسل ملك الهند هداياه الى ملك مصر وخليفتها [2] .

وقد نشأت بين البلدين علاقات تجارية واسعة . فاستوردت مصر من الهند ، الحنطة والحمص والسمسم وجوز الهند ، وغير ذلك . واستوردت الهند منها الكتان وغيره [3] .

وكانت مصر الممر التجارى الوحيد تقريبا ، بين الهند وأوربا ، ولهذا زادت أهمية العلاقات بينهما .

***

واستمرت هذه الأوضاع قائمة الى زمن الأشرف الغورى . وقد أرسل اليه أحد ملوك الهند وهو مظفر شاه ، فى رمضان عام ٩١٨ هـ ، يطلب تقليدا من خليفة مصر بولايته . فأجابه الى طلبه .

---

(١) مصر فى العصور الوسطى ص ٢٧٢

(٢) بدائع الزهور جـ ٢ حوادث جمادى الآخرة عام ٨٧٦ هـ ، وجمادى الأولى عام ٨٧٩ هـ .

(٣) مصر فى العصور الوسطى ص ٢٧٢

الا أن البرتغاليين ، وكشّاف الافرنج ، كانوا قد طافوا حول سواحل افريقية وكشفوا بعض مجاهلها ، وعرفوا طريق رأس الرجاء الصالح فى جنوب افريقية ، الى بلاد الهند . وأخذ هذا الممر الجديد ينافس طـريق مصر . وشرع البرتغاليـون يتعقبون المتاجر الهندية والمصرية فى سواحل الجنوب العربى والمحيط الهندى ، وينشرون نفوذهم بالقوة فى هذه الجهات وفى بلاد الهند . فكان هذا شغلا شاغلا للسلطان الغورى .

ونشط الغورى الى مكافحة البرتغاليين . وبعث اليه ملوك الهند يكشـفون له كثيرا من أعمال هؤلاء الغـزاة الجدد ، وأخبروه عمن يصحبونهم من الجنود لغزو بلاد المسلمين ، ومن الرهبان للتبشير بالمسيحية وللقضـاء على الاسـلام فى تلك الأصقاع .

وقد كان هذا العمل لونا جديدا من الحروب الصـليبية ، ومقدمة مشئومة لاستعمار الشرق ، فضلا عن خطره العاجل . وهو حرمان مصر حينذاك ، من مورد مالى عظيم ، يعتبر من أهم موارد دخلها .

***

وأخذ الغورى يواجه هذا الخطر ويكافحه ، فأعد تجريدة كبيرة بحرية بقيادة الأمير « حسين الكردى » ، جمع رجالها من جنسيات متعددة ، فكان من بينهم العبيد السود والتراكمة والمغاربة وأولاد الناس ــ أبناء الأمراء المتطوعون ــ فضلا عن المماليك السلطانية .

ووكل قيادة المغاربة وحدهم الى الخواجا « نور الدين على المسلاتى المغربى » .

وأبحرت التجريدة من السويس الى جدة فى جمادي الآخرة عام ٩١١ هـ . وما ان بلغت ينبع حتى دخلت فى معركة طاحنة مع « يحيى بن سبع » أمير ينبع الثائر على السلطان . فهزمته ففر هاربا .

واتخذت التجريدة مدينة جدة قاعدة لها . وكانت من أهم مراكز التجارة بين مصر والهند . فشرع رجالها فى بناء الأسوار والأبراج ، لحماية المدينة . وأخذوا فى مراقبة الطريق الى الهند وتفتيشه وتعقب الفرنجة فيه ، ومقاومتهم . وكانوا قد تسللوا الى سواحل البحر الأحمر ، ليقطعوا الطريق بين مصر والهند ، حتى اضطربت التجارة بينهما وندرت واردات الهند الى مصر .

ومن سوء الحظ أن « على المسلاتى المغربى » كان ينفس على الأمير « حسين الكردى » القائد العام للحملة . فأدى ذلك الى وقوع المنازعة بينهما . فعوّقت التجريدة عن بلوغ أهدافها مدة .

وأرسل الغورى اليهما أحد رجاله بتعاليمه وبعدد من الجنود ، فقبض على « المسلاتى » وأعاده الى القاهرة مقيدا بالأغلال .

ومضى « الكردى » فى قتال الفرنجة ، حتى انتصر عليهم فى عام ٩١٤ هـ انتصارا عظيما ، وغنم منهم غنائم لا تحصى .

وتعلم الفرنجة من درس الهزيمة ، فعززوا سفنهم وجنودهم ، وأوقعوا برجال الحملة المصرية حتى قضوا عليهم ونهبوا سفنهم . فكان لأنباء الهزيمة صدى سيىء فى مصر ، وأثر أليم فى نفس الغورى .

وعاد الأمير « حسين الكردى » الى القاهرة فى رمضان عام ٩١٨ هـ ، بعد غيبة نحو سبع سنين ، بلغ فى خلالها الى سواحل الهند ، واشتبك مع الفرنجة فى جملة وقائع ، وقاسى أهوالا شديدة .

***

ولم يهدأ ملوك الهند عن مكاتبة الغورى ، واطلاعه على مراحل الغزو الصليبى الجديد ، وعلى ما يقوم الغزاة اللصوص به من العبث ببلادهم ونهب متاجرها وخيراتها ، وبخاصة بعد انتصارهم على الأمير « حسين الكردى » .

وكان من خطط الغورى أن يوحد بين صفوف ملوك الهند ، ليكونوا يدا واحدة قوية معه ، ضد هذا العدو المشترك . فأرسل اليهم تعليماته بهذا الشأن مع أحد رجاله المخلصين وهو « الطواشى بشير » ، فرحل اليهم مبكرا فى عام ٩١٦ هـ .

ولم يجد ذلك نفعا أمام قوة الغزاة ، الذين ما لبثوا بعد انتصارهم على « حسين الكردى » أن استولوا — كما روى — على « كمران » احدى مقاطعات الهند ، وذلك خلال عام ٩١٩ هـ . وأخذوا فى محاصرة « سواكن » التى كانت احدى

محطات التجارة المصرية . وأصبحت مدينة جدة بذلك ، فى خطر الغزو .

واستقر رأى الغورى على اعداد تجريدة جديدة . وعجل بارسال طلائع مزودة بالمال والسلاح والعتاد وبرماة البندق والنفطية ، بقيادة الأمير « خشقدم » شاد الشون . على أن تقيم هذه الطلائع فى جدة لمراقبة الحالة ومكافحة المغيرين ، حتى يتم اعداد التجريدة .

وعيَّن الأمير « حسين الكردى » قائدا للحملة ، وأمره بالخروج على عجل الى جدة ، ليدبر أمورها ، ريثما يتم اعداد الحملة . وما ان بلغ جدة ، حتى أرسل يحث السلطان على التعجيل بارسال التجريدة ، درءا للغزاة الذين ازداد عبثهم فى سواحل الهند والبحر الأحمر ، حتى كادوا يغزون جدة نفسها .

وعانى السلطان مشقة زائدة فى اعداد الحملة . فقد تألبت عليه نفوس الجنود السلطانية ، وشاع بينهم العصيان فى هذه اللحظات الحرجة . وبذل الحيلة معهم ليدفعهم الى الخروج للجهاد ، وظل يغدق عليهم ويمنيهم ، حتى استطاع أن يجند منهم ستة آلاف جندى .

وأعد لحملهم نحو عشرين سفينة حربية كبيرة ، بناها فى ميناء السويس ، وجهزها بالمعدات اللازمة ، وبمجموعة كبيرة من مهرة البحارة . وكان من بينهم طوائف من المغاربة والتراكمة

والعثمانية . ووكل قيادة السفن الى الريس « سلمان العثمانى ». وأبحرت الحملة فى رجب عام ٩٢١ هـ .

***

وشغل الغورى بأنباء الفتنة بين اسماعيل شاه ملك العجم ، وسليم شاه ملك العثمانيين . والتفت الى اعداد حملته الكبرى التى خرج بها الى حلب فمرج دابق ، للقاء العثمانيين .

وفى هذه الأثناء كانت تجريدته الثانية الى جدة والهند ، تجوب الأصقاع النائية فى سواحل البحر الأحمر والمحيط الهندى . وبلغت ــ كما روى ــ الى « كمران » وأنشأت بها قلعة عظيمة ذات أبراج لحماية سواحلها من الغزاة . وأرسلت طوائف من رجالها الى مكان يعرف « باللحية » وآخر يعرف « بِمَوَر » فاحتلوهما . ثم ملكوا « زبيد » وأشرفوا على احتلال « عدن » .

ومن سوء الطالع أن ثارت الأحقاد الشخصية بين الأمير « حسين الكردى » و « الريس سلمان العثمانى » . وصادف ذلك مصرع الغورى فى مرج دابق ، فى رجب عام ٩٢٢ هـ ، فاشتد النزاع بين الرجلين ، واجترأ الريس سلمان العثمانى فقتل الأمير « حسينا » . وغرقت سفنهم فى نهاية الأمر .

وفى شعبان عام ٩٢٣ هـ عاد الريس سلمان ببقايا رجاله ومعه بعض أسراهم من الفرنجة . وكانت عودته خاتمة لصراع الغورى مع غزاة الصليبيين فى سواحل البحر الأحمر وبلاد الهند .

***

الغورى والصليبيون :

تنطوى علاقات الغورى مع بلاد الهند ، على كثـير من جهوده ووسـائل مكافحته لفرنجة الجنوب ، من البرتغاليين وغيرهم ، العابثين بالطريق التجارى بين مصر والهند .

أما الفرنجة الذين كانوا يهاجمون مصر والشام فى السواحل الشمالية ، فهم المعروفون فى التاريخ بالصليبيين . وكانوا قد أسسوا لهم مستعمرات وحصونا بهذه السواحل . وقد كافحتهم مصر مكافحة شديدة ، واستردت منهم كثيراً من المدن والحصون ، حتى استعادت منهم مدينة « عكا » الحصينة عام ٦٩٠ هـ فى عهد الملك الأشرف خليل بن قلاوون . وكانت آخر معاقلهم فى الشرق .

غير أنهم لم يرعووا ويكفوا عن عبثهم وتلصصهم . وامتد هذا الى عصر الغورى . وكانت لهم بقايا معسكرة فى جزيرة رودس ، وهم الاسـبتارية . فكانوا يتلصصون من آن الى آخر ويباغتون السواحل المصرية ، وينهبون متاجرها ويلوذون بالفرار .

فرصد لهم الغورى تجريدة قوية بقيادة أحد أقربائه وهو « محمد بيك » فى ذى القعدة عام ٩١٣ هـ . وأمر ببناء عدة أبراج بجهة « الطينة » على ساحل البحر المتوسط ، ووكل رقابتها الى الأمير « تمر باى الهندى » . ففاجأته احدى سفنهم

فى ذى القعدة عام ٩١٤ هـ ودار القتال بينهما ، فهزمهم هزيمة منكرة وغنم سفينتهم ، وأسر نحو سبعة وعشرين من رجالها .

وبينما كان « محمد بيك » فى جهة «الجون» لشراء أخشاب لبناء السفن ، اعترضته سفينة أخرى من سفنهم ، فدخل معها فى معركة حامية ، استطاع فيها أن يقتل منهم عددا وفيرا ، ويأسر الباقين ، ويغنم السفينة وما فيها . وكانت تقدر — على ما قيل — بمائة ألف دينار . وذلك فى رجب عام ٩١٥ هـ .

ودخل « محمد بيك » الى القاهرة ، ومعه من الأسرى نحو خمسين رجلا . فاخترق بهم شوارعها بين جماهير متراصة صاخبة ملأ الفرح قلوبها بهذا النصر .

***

وعوّل الغورى على شراء كمية كبيرة من الأخشاب لصناعة سفنه الحربية بالسويس ، لحملاته البحرية الى جدة والهند . فبعث قريبه « محمد بيك » هذا على رأس كتيبة الى « الجون » فى ربيع الأول عام ٩١٦ هـ ، وسار اليها بحرا . فباغتـه بعض الصليبيين فى قلعة اياس ، وحملوا عليه حملة عنيفة ، فتفرق عنه رجاله . فقتل هو ومن ثبت معه من الجنود . ووقعت سفنه غنيمة فى يد أعدائه فاستولوا عليها وعلى ما فيها ، وكانت نحـو ثمانى عشرة سفينة .

وكان لمقتل « محمد بيك » وهزيمته ، أسـوأ أثر فى نفس الغورى ، حتى عاف الطعام يومين .

ولم تهدأ نفسه دون أن ينتقم . فقبض على رهبان كنيسة القيامة بالقدس ، واستقدمهم اليه ووبخهم توبيخا شـديدا ، وطالبهم بمكاتبة ملوكهم لرد الغنائم ، وهددهم بهدم الكنيسة وشنق رهبانها . وأمر باغلاقها ومنع زوارها .

وقبض كذلك على تجار الفرنجة بالاسكندرية ودمياط وغيرهما من مدن السواحل ، وسجنهم . وصادر أموال الفرنجة المودعة بكنيسة القيامة .

وفى هذه الأثناء أبلغـه نائب ألبيرة أنه قبض على عـدة جواسيس لاسماعيل شاه الصفوى ملك العجم ، ومعهم مكاتبات الى عدة قناصل فى بلاد السلطنة المصرية ، ليكاتبوا ملوكهم بأن يكونوا معه يدا واحدة ضد الغورى وضد السلطان سليم ملك بنى عثمان . وكانت الخطة أن يقوم هو بغزو مصر برا ، وهم يغزونها بحرا .

فاستقدم الغورى توا هؤلاء القناصل ، فى ذى القعـدة عام ٩١٦ هـ . ووجه اليهم اللوم على هذه المؤامرات ، وهددهم بالشنق . وكان بينهم قنصل فرنسا « فيليب بارت » ، فتقدم الى السلطان باقتراح يسترضـيه به ، وهو أن يسـعى لدى الاسبتارية ليردوا السفن المصرية ، ويسعى لدى دولته فرنسا لتعاون مصر ضد البرتغاليين . غير أن الاسبتارية لم توافق على الاقتراح ، فلم ينفذ منه شيء [1] .

***

(١) مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص ١١٣

وفى عام ٩١٧ هـ دهم الريس « حامد المغربى » جماعة من الفرنجة يعبثون بسواحل البرلس ، واستطاع أن يقبض على نحو مائتين منهم ، وساقهم الى القاهرة فى زناجير من الحديد .

وظلت كنيسة القيامة مغلقة فى وجه زوارها ، حتى أرسل ملك البنادقة وفدا كبيرا من لدنه فى صفر عام ٩١٨ هـ الى الغورى وقدم اليه هدية عظيمة القيمة ، وقيل انها كانت نحو مائة حمل ما بين أوان من البلور ، ومنسوجات من الجوخ والحرير والأطلس وغير ذلك . ليفاوضوه فى اعادة فتح الكنيسة والسماح لزوارها بالزيارة . فأذن لهم — على ما يبدو — .

***

الغورى والدولة الصفوية :

تتمثل علاقة الغورى بالدولة الصفوية فى فارس ، فيما جرى من النزاع بينه وبين الشاه اسماعيل الصفوى ملك فارس والعراق .

والشاه اسماعيل هو مؤسس الدولة الصفوية ، نسبة الى جده صفى الدين . وقيل ان نسبه يتصل بالعلويين . وكان آباؤه وأجداده من أهل التصوف والارشاد ، فنشأ على غرارهم ، وقيل له « الصوفى » . وكان شيعيا متطرفا فى شيعيته وفى دعوته الى التشيع . وقد صار له من الأنصار والأتباع عدد كبير جدا وانتشروا فى بلاد العجم والعراق . وعمل على نشر

مذهبه والكيد لأهل المذاهب الأخرى ، فألهب نيران الأحقاد المذهبية بين المسلمين .

وكان الشاه اسماعيل واسع الأطماع يحلم بتوسيع سلطنته على حساب جاراتها . وكانت بلاد الدولة العثمانية ، والسلطنة المصرية ، متاخمة لبلاده [١] .

***

وداعبته الأحلام فى امتلاك بعض بلاد السلطنة المصرية . وكان بدء تحركه عليها فى عام ٩٠٨ هـ اذ قيل ان عساكره أخذت فى الزحف على أطرافها . فرأى الغورى أن يعد حملة تقيم فى حلب لمراقبة الأمور . ثم تبين أن جنود الشاه اسماعيل قد عادت أدراجها الى بلادها ، فأوقف اعداد الحملة .

وفى ربيع الثانى عام ٩١٣ هـ ، زحفت جيوش الشاه اسماعيل، وبلغت طلائعها الى ملطية احدى النيابات المصرية ، واقترفت من الجرائم والآثام ما تقشعر منه الأبدان . فأخذ الغورى فى اعداد تجريدة قوامها ألف وخمسمائة جندى بقيادة الأمير « قانى باى قرا » لردعهم .

وكانوا قد عبروا نهر الفرات زاحفين الى الغرب . فتصدى لهم « على دولات » أمير التركمان ، وكان خاضعا للغورى .

---

(١) راجع « بغداد مدينة السلام » لطه الراوى .

فاشتبك معهم فى معركة طاحنة ، كسرهم فيها وقتل منهم عددا لا يحصى ، وفر الباقون منهم يجللهم عار الهزيمة . فسر الغورى بذلك . وألغى اعداد التجريدة .

***

ثم ما لبث اسماعيل شاه أن زحف على العراق وامتلك بغداد من ملكها حينذاك « مراد خان » بن يعقوب بن حسن الطويل الذى شق عليه جنوده عصـا الطاعة وانضموا الى اسماعيل شاه . ففر « مراد خان » لاجئا الى السلطنة المصرية . وأرسل الى الغورى يستنجد به على عدوه . ورأى الغورى ألا يعجل بنجدته ، وآثر الانتظار والتريث ، على أن يدخل فى نزاع سافر بينه وبين الشاه اسماعيل .

على أن الشاه اسماعيل كان لا يقر له قرار ولا يهدأ له بال عن التحرش بالغورى وسلطنته . فأرسل فى جمادى الأولى عام ٩١٦ هـ رسله الى بعض ملوك الفرنجة يستعديهم عليه ليغزوه عن طريق البحر ، ويغزوه هو عن طريق البر ، ــ كما أشرنا ــ فضبطت مراسلاته وجواسيسه ، ووبخ الغورى قناصل الدول وهددهم بالشنق .

وفى أواخر عام ٩١٦ هـ أرسل الشاه اسماعيل الى الغورى رأس « أزبك خان » أحد ملوك التتار المسلمين ، ورأس ابنه ووزيره فى علبة . وكان « أزبك خان » شغلا شاغلا لاسماعيل شاه ، فما زال به حتى قتله فى احدى معاركه . ومن ثم أرسل

رأسه الى الغورى نكاية فيه وتهديدا له . وبعث اليه مكاتبة فيها أبيات من الشعر تنطوى على تهكم وسخرية . ــ أشرنا اليها ــ فرد عليه الغورى بمكاتبة على غــرارها . وكان ذلك ايذانا بوقوع الوحشة بينهما والنزاع السافر .

وفى المحرم عام ٩١٨ هـ ساق الشاه اسماعيل عساكره على بلاد السلطنة المصرية . فبلغت طلائعها مدينة ألبيرة على الفرات ، وســيس عاصمة قيليقيا . فتصـــدى لها بعض نواب السلطنة وقبضوا على عدد من رجالها وجزوا رءوسهم ، وبعثوها الى السلطان فأشهرها فى القاهرة ، ثم أمر بتعليقها على باب النصر وباب الفتوح .

وفى وسط هـــذه المناوشات ، كانت السفارة بين الطرفين لا تنقطع . وكان الغورى قد أرسل الأمير « تمر باى » الهندى رسولا الى الشاه اسماعيل ، فمكث لديه نحو عامين ثم عاد فى ربيع الثانى عام ٩١٨ هـ دون أن يلقى منه اكراما . وتبودلت المكاتبات الخشنة بين الملكين .

وأخذ الغورى يتوقع قرب نشوب القتال بينه وبين الشاه اسماعيل .

وكان السلطان سليم ملك الدولة العثمانية قد ضاق ذرعا بالشاه اسماعيل وبأتباعه وبدعايته وشيعيته وتعصبه . فاستفتى علماء بلاده فيه ، فأفتوه بكفره وأحلوا له قتله . فأعد العدة لغزوه والقضاء عليه .

وكان كل من الرجلين ــ الشاه اسماعيل والسلطان سليم ــ

يحرض الغورى على أن ينضم الى جانبه ضد الآخر ، وفضل الغــورى موقف التريث والانتظار ، حتى يرى ما يكون بين الرجلين . لذلك كان كل منهما يتهمه أنه يعمل ضده مع عدوه .

واشتد النزاع بين هذين الرجلين حتى وقعت بينهما موقعة « اسكندران » أو « جلدران » الشهيرة فى رجب عام ٩٢٠ . وفيها انهزم الشاه اسماعيل هزيمة ساحقة ، ودحر جيشه ، وفر ناجيا بنفسه وببقايا رجاله . وملك السلطان سليم منه مدينة « تبريز » وغيرها من عواصم فارس وضياع ديار بكر وغيرها .

وعجل الغورى ، لسلامة نيته ، فأظهر ابتهاجه بأخبار هذه الموقعة الحاسمة . ثم فطن — على ما يبدو — الى أن أحد الرجلين اذا تغلب على خصمه ، فانه سيتحول لمناجزته . وبخاصة الشاه اسماعيل الذى وصلت الوحشة بينه وبين الغورى الى أشدها — كما نوهنا — .

وبعد أن انتصر السلطان سليم ، رأى أن يعد العدة لملاقاة الغورى وجيوشــه . وشرع الغــورى يتأهب للقاء المنتظر ، فانطوى ما كان بينه وبين الشاه اسماعيل ، فى خضم لقائه مع العثمانيين .

ولأهمية علاقة الغورى بالعثمانيين ، نفرد لها فصلا مستقلا ، وهو الفصل التالى .

الفصل الثامن

الغورى والدولة العثمانية

تعتبر العلاقات بين الغورى والدولة العثمانية ، أهم علاقاته السياسية الخارجية اذ ذاك . لما تخللها من الدسائس والخداع ، وصاحبها من الأطماع والمآرب ، ولما أدت اليه من وقوع الحرب بين الطرفين ، وما ترتب على ذلك أخيرا من زوال دولة الغورى جملة ، وزوال دولة المماليك ، ووقوع مصر فريسة ، بين مخالب الاحتلال العثمانى .

والعثمانيون من الجنس الطورانى ــ كالأتراك السلاچقة ــ وبلادهم الأولى وسط آسيا وشمالها . وفى خلال القرن السابع الهجرى ، كان التتار قد اكتسحوا أواسط آسيا فى طريقهم الى العراق والشام وسواحل آسيا الغربية . فعانت منهم أمم كثيرة ما عانت . فنزح من أهلها كثيرون الى بلاد أخرى ، يلتمسون فيها الطعام والمأوى والأمن . ومن بينها قبيلة طورانيــة كان يرأسها كبيرها « سليمان شاه » الذى نزل بها عام ٦٢١ هـ فى صحارى أرمينية الكبرى . فمكث نحو سبع سنوات ، عاون أثناءها سلطان قونية « علاء الدين » كبير السلاچقة حينذاك .

ومات « سليمان » وترك أربعة أبنــاء منهم « أرطغرل » الذى فضل الاقامة بجوار « علاء الدين » . وعاونه فى حروبه .

وأظهـــر فى ذلك بســالة نادرة واقداما عظيما . ثم وقعت بين «علاء الدين» والتتر ، حروب ضروس . فركب « أرطغرل » فى فرسانه وأهل عشيرته ، وحمل بهم على أعداء « علاء الدين » فأبادهم . فكافأه « علاء الدين » وأعطاه بلاد « سكود وأسكى شهر » بالقرب من مدينة « بروسة » فبدأت تتكون له قاعدة امارة .

وعاش « أرطغرل » تســعين عاما ، ثم توفى عام ٦٨٠ هـ بمدينة « سكود » . وترك ثلاثة أبناء من بينهم « عثمان » وكان فارسا شجاعا صنديداً ، فتقلد قيادة الجيش .

وكان « عثمان » له طمع الفرسان وأمل الملوك ، فى أن يحفظ امارته الصغيرة الناشئة . ولذلك أخذ يغير على القبائل القريبة منه ، ويســتولى على مقاطعاتها وأملاكها ، ويحارب أطراف دولة الروم ، ويستحوذ على قلاعها المجاورة . فازداد اعجاب « علاء الدين » به ، فمنحه لقب « أمير » وجعله حاكما مستقلا على ما فتحه من الأراضى .

فاهتم « عثمان » بدولته الجـــديدة ، وعمل على تنظيمها وتوسيعها واعداد جيشها ، بما يناسب آماله وأحلامه . وبذلك يعتبر المؤسس الحقيقى للدولة العثمانيـــة ، واليه تنتسب هذه الدولة .

واتبع خلفاؤه خطة التوسع . واستولى ابنه « أورخان » على «بروسة» وجعلها مقرا لدولته . وأنشأ فرقة «الانكشارية» المشهورة فى تاريخ الدولة العثمانية .

وامتدت أملاك هذه الدولة الى القسم الغربى من آسيا الصغرى . ووثبوا الى الساحل الأوربى ، وغزوا بلاد الصرب والبلغار ، وهددوا دولة الروم الشرقية . وصادفهم سوء الحظ فى عهد سلطانهم « بايزيد الأول » اذ هزمه «تيمورلنك» التترى فى سهل أنقرة وأخذه أسيرا .

ولما ولى السلطان « محمد الأول » لم شعثهم ، هو وابنه « مراد الثانى » . ثم استطاع من بعـــدهما السلطان « محمد الفاتح » فتح مدينة القسطنطينية عام ١٤٥٣ م ، فكان لذلك رنة فرح عظيمة فى جميع بلاد المسلمين . وقد زينت القاهرة لذلك عدة أيام .

وما زالت دولتهم تجرى على هذا الغرار ، حتى ولى أمرها السلطان سليم الأول عام ٩١٨ هـ ـــ ١٥١٢ م . وكان قائدا بارعا وسياسيا خبيرا ، وفاتكا قاسيا . وهو الذى قاتله السلطان الغورى فى مرج دابق [١] .

***

واتصلت علاقة العثمانيين بمصر ، فى عهـــد الملك الظاهر برقوق . وكانت العداوة حينذاك محتدمة بين ملكهم « بايزيد الأول » و « تيمور لنك» ملك التتار . وكان « تيمور لنك » قد زحف على بلاد الشام . فخف السلطان برقوق الى مقاتلته

(١) تاريخ آل عثمان ليوسف آصاف .

بجيش كبير بلغ به مدينة حلب . فوافته رسل ملوك عدة يخطبون وده . وكان من بينهم « بايزيد الأول » الذى بعث اليه بجملة من الهدايا النفيسة ، وحذره من « تيمورلنك » . ودعاه الى التعاون معه ، لصد تيار التتار . وطلب اليه أن يرسل له طبيبا حاذقا ومعه أدوية لعلاجه من ألم المفاصل . فأرسل اليه الطبيب المصرى « شمس الدين بن الصغير » ومعه العلاج اللازم .

واستمرت العلاقة حسنة بين مصر والعثمانيين . وفرحت مصر بفتح القسطنطينية عام ٨٥٧ هـ ، وبعث سلطانها حينذاك الأشرف اينال العلائى ، رسولا الى محمد الفاتح يهنئه بهذا النصر الاسلامى المبين .

ثم أخذت العلاقة تسوء ، بعد أن ولى الأشرف قايتباى سلطنة مصر . وكان سلطان الدولة العثمانية حينذاك هو « بايزيد الثانى » . وكانت شهوة التوسع قد استبدت بالعثمانيين ، على حساب جيرانهم . ومن هنا أخـــذوا يحتكون ببلاد السلطنة المصرية المتاخمة لهم .

وكان « على دولات » أحد أمراء التركمان فى شرق آسيا الصغرى ، خاضعا فى ولايته لمصر . فشق عليها عصا الطاعة ، واستعان بالسلطان «بايزيد الثانى» فأعانه . وكان بين «بايزيد» هذا وبين أخيه الأمير « جم » خلاف شديد حول العرش ، ففر « جم » الى قايتباى ، فرحب به وأكرمه . وكان أحد ملوك الهند قد أرسل مع بعض رجاله ، هدايا ذات قيمة الى «بايزيد»

ومن بينها خنجر نفيس ، فاعترضهم رجال قايتبــاى وسلبوا ما معهم من الهدايا وأرسلوها اليه .

واضطربت العلاقات بين الملكين بسبب هذه التصرفات . وحاول قايتباى من ناحيته أن يهدىء ثائرة « با يزيد » وأعاد اليه هداياه المسلوبة ، واشترط عليه ألا يتدخل بينه وبين نائبه « على دولات » . فلم يأبه « بايزيد » لشروطه .

ولم يجد قايتباى بدا من تأديب « بايزيد » وردعه . فجرد عليه أكثر من حملة . فكانت حملاته تعود اليه منتصرة غانمة فى كل مرة . وفى عام ٨٩٣ هـ كانت الحملة المصرية بقيادة الأتابكى « أزبك بن ططخ » فانتصرت على العثمانيين انتصارا مبينا ، واستولت على مدينة « أدنة » وعلى كثير من الغنائم والأسرى . وفى عام ٨٩٥ هـ استولت على مدينة « قيسارية » ثم تصالح الطرفان .

***

هذه لمحة تصور صلات مصر ومواقفها من العثمانيين قبل الغورى . وترينا كيف أنها وقفت منهم موقف المؤدِّب المعاقب فى عهــد قايتبــاى ، على الرغم من اتســاع دولتهم وتوالى انتصاراتهم .

الا أن الغورى كان ميالا بفطرته الى السلم والمسالمة ــ كما نوهنا ــ مالم تدعه الضرورة الملحة الى شن الحرب . بينما ظل العثمــانيون ، على الرغم من مشاغلهم المتلاحقة وحــروبهم

المتتابعة ، دائبين على التوسع ومحاربة جيرانهم . فكان من سوء الحظ أن اتبع الغورى معهم سياسة الموادعة والتريث والانتظار مع أنه قضى شطرا كبيرا من عهــده فى مكافحة المغيرين على أطراف دولته والعصاة الثائرين عليه ، ورأينا ما بذله من الجهود والحروب فى الحجاز وطريق الهند وسواحل الشمال .

وفى الحق ، انقضت عدة سنين من سنى حكمه ، دون أن يبرز بين الدولتين جفاء ينذر بسوء العاقبة . بل ظلت السفارات والمكاتبات بينهما متبادلة ، واطردت المنــافع بينهما بما يشعر بالمودة والمعاونة .

وقد أرسل الغــورى الى ملك العثمــانيين عام ٩١٦ هـ الخواجا « يونس العادلى » لشراء كميات من الخشب والحديد والبارود ، فاحتفل به وأرسل معه الكميات المطلوبة هدية منه الى سلطان مصر .

وأرسل اليه فى عام ٩١٨ هـ الرئيس « حامد المغربى » ، ليبتاع أيضا مقادير من لوازم السفن ، ما بين أخشاب وحبال ومكاحل نحاسية ، فأرسلها اليه هدية من عنده كالمرة السابقة .

وولى عرش الدولة العثمانية السلطان سليم عام ٩١٨ هـ فبعث اليه الغورى فى جمادى الآخرة ، الأمير « أقباى الطويل » ليهنئه بالملك .

وما برحت رسل ملوك العثمانيين تفد على مصر ، فى عهد الغورى ، وتنزل عنده على الرحب والسعة ، مكرمة معظمة . حتى اعتلى العرش السلطان سليم . فكانت سياسته وأطماعه

مؤذنة بقرب شبوب الفتنـــة وهبوب ريح النزاع بينـــه وبين الغورى ، وبعودة سياسة الاستفزاز والمناوشات ، على نمط مما كان في عهد الأشرف قايتباى .

واستمر الغورى فى تفاؤله ، وفى ميله السريع الى تصديق شائعات المودة ومخادعات السلام .

وكانت هناك حينذاك ، ثلاث قوى ، تتجاذب زعامة العالم الاسلامى . وهى فارس بقيـــادة الشاه اسماعيـــل الصفوى ، والدولة العثمانية بقيادة السلطان ســـليم ، والسلطنة المصرية بقيادة السلطان الأشرف الغورى . ومن سوء الطالع أن هذه القوى العظيمة ، لم تستطع أن تعـــرف طريقهـــا نحو التآخى والتعاون لخير المسلمين .

***

التجريدة الأولى الى حلب :

وفى ربيع الأول عام ٩٢٠ هـ أرسل السلطان ســـليم الى الغورى ، ينبئه أنه يعد العدة لقتال اسماعيل شـــاه ، ويطلب اليه أن يتعاون معه . فلم يجزم الغورى برأى قاطع . وأرسل الأمير « اينـــال باى » ليتحسس الأخبار ، ويكشف حقـــائق الأمور والنوايا .

ولم يأخذ الغورى أهبته لمـــا عسى أن يفاجئه من جانب العثمانيين ، أو الصفويين ، أخذا جادا . وحقا قد اهتم حينذاك ببناء الأســـطول الحـــربى وأبراج الحراســـة ، وصنع المكاحل

والمدافع . ونعتقد أن هذا كله كان احتياطا للأمن ، لا استعدادا لحرب منتظرة ومتوقعة . ولو أعد للأمر عدته ، لغير مجرى التاريخ .

ورأى أن يجهز تجريدة كبيرة يرسلها الى حلب ، لتقيم هناك وترقب الأحوال عن قرب ، وتوافيه بأخبار تحركات كل من سليم شاه واسماعيل شاه .

وزود التجريدة بالمال والرجال والسلاح والدواب وكل ما تحتاج اليه من العتاد . وكان قوامها نحو ألفين وأربعمائة جندى . أعطاهم رواتبهم المتأخرة ، ورواتب أربعة أشهر معجلة ، وغير ذلك . وأسند قيادتهم الى الأمير « قانى باى قرا » يعاونه الأمراء سودون الدوادارى وأرزمك الناشف وأبرك الأشرفى وغيرهم .

وخرج قادة التجريدة فى رجب عام ٩٢٠ هـ فى وسط موجة عظيمة من المشاهدين . وهذه أول تجريدة جادة يبعثها الغورى الى حلب ، منذ ولايته . وكان خروجها أمرا قضت به الضرورة التى لا مفر منها ، لحماية أطراف السلطنة وتخومها ومراقبة حركات أعدائها . وكانت حلب بموقعها أحوج الى وجود مثل هذه التجريدة بها ، لقربها من مواقع الأعداء .

ونعتقد أن هذه التجريدة ، لو كانت أكثر رجالا وأوفى عدة ، وأدق تدريبا ، وأكثر ائتلافا ، وأحرص على التعاون ، وأرعى للخلق ، وأشد فهما للغاية والواجب ، وأحفظ للأمن ، وأطوع للقادة ، لبلغت أهدافها وأكثر منها . ولكانت درعا — مع

آهل حلب وجنودها ــ تقى السلطنة من كثير مما أصابها من المحن .

ففى هــذه الأثناء ، وقعت بين اسماعيل شــاه والسلطان سليم ، المعركة الطاحنة ، التى استولى السلطان سليم على اثرها على مدينة « تبريز » وغيرها من بلاد فارس وتوابعها ــ كما نوهنا ــ والتى عجل الغورى فأظهر ابتهاجه بها .

وكانت حملته الأولى الى حلب ، قد بلغتها . ودب التنابذ بين جنودها ، وحركتهم الأطماع وحب المال ، وتقلصت عنهم صفة الشهامة وفهم الواجب وتقدير المهمة الملقاة على عاتقهم . فما ان دخلوا الى حلب ، حتى عاثوا فيها فسادا ، فنهبوا بيوتها وأسواقها ، واستباحوا نساءها وغلمانها ، ونبذوا طاعة قادتهم ، وكانوا شر دعاية للغورى ودولته .

واضطر نائب حلب ورجاله الى كبح جماحهم . فوقع القتال بينه وبينهم ، وانتشرت الفتنة بذلك فى أرجاء المدينة ، حتى بدا عليها شبح الخراب . وفر أخيرا نائبها وكثير من أهلها . واختفت السلع والبضائع وارتفعت موجات الغلاء .

وهكذا كانت التجريدة سببا فى اضطراب الأمن ، بدلا من حفظه ، وأداة لتنفير الناس بدلا من تأليفهم .

وكان لهذه الحوادث أثرها الأليم فى نفس الغورى ، فقرر اعادة التجريدة . فعاد جنودها متفرقين ، بعد أن باعوا خيولهم ودوابهم وأمتعتهم وأســلحتهم .. ليعيشــوا بأثمانهــا ــ كما زعموا ــ .

وتركوا فى حلب وأهلها أسوأ الآثار وآلم الذكريات . مما لم ينسه الحلبيون . فقد انتقموا فيما بعد ، من جنود الغورى اثر معركة مرج دابق ، شر انتقام ، كما سنرويه .

***

النزاع بين الغورى والسلطان سليم :

وبدأ النزاع المباشر بين الغورى والسلطان سليم ، بسبب ابن سوار . وسوار هذا هو ابن ذى الغادر أحد أمراء التركمان. وقد كان ملكا على « أبلستين » [1] . وكان قد أثار نزاعا فى عهد الأشرف قايتباى ، وأغار على الديار الحلبية والشامية . فجرد عليه قايتباى حملة قوية بقيادة الأمير الشجاع « يشبك بن مهدى » الدوادار . فقبض على سوار وساقه الى قايتباى مصفدا فى الأغلال ، فشنقه على باب زويلة .

وولى قايتباى فى مكانه أخاه « على دولات » ، فعاش خاضعا لسلطان مصر . ولما آلت السلطنة الى الغورى بعث اليه « على دولات » أحد أبنائه بهدية نفيسة . فأكرمه الغورى وخلع عليه خلعة ثمينة ومنحه رتبة . وحمّله الى أبيه هدية قيمة . وتوالت الرسل والهدايا على هذا النمط بينهما .

وثار ابن سوار على عمه « على دولات » وطالبه باعادة

---

(١) أبلستين : بثلاث ضمات فسكون فكسر ، مدينة ببلاد الروم ، قرب أفسوس ، مدينة أهل الكهف . راجع هامش سلوك المقريزى ص ٦٢٥ ، عن معجم ياقوت ــ .

أملاك أبيه اليه . وقامت بينهما بسبب ذلك فتنة كبيرة . وبدلا من أن يلجأ ابن سوار الى السلطان الغورى ، لجأ الى السلطان سليم واستغاث به . فاغتنم السلطان سليم هذه الفرصة السانحة المواتية ، للتدخل فى شئون مصر . وأرسل الى الغورى فى المحرم عام ٩٢١ هـ رسالة خشنة يطلب اليه فيها أن يعطى ابن سوار بلاد أبيه التى فى يد عمه « على دولات » .

واستشار الغورى أمراء دولته فى ذلك . فاتفق الرأى على أن هذا يعد تدخلا فى شئون السلطنة المصرية . ومن ثَم رفضوا الطلب .

فلم يكن من السلطان سليم الا أنه أمد ابن سوار بجنود من عنده ، دهموا عمه « على دولات » . فدارت بينهما رحى حرب طحون ، قتل فيها ابن على دولات وحفيده وكثير من أتباعه وجنوده . واضطر « على دولات » الى الفرار بنفسه ناجيا ، واختفى فى قلعة « زمنطوا » .

وتوالت أسباب النزاع ، والغورى لا يقضى على سبب منها فى قوة وحزم وعجلة ، وفضّل التأنى والتريث .

ويبدو أن السلطان سليما قد وضع مخططا محكما ، حينذاك ، لاستفزاز الغورى والكيد له . واستخدم فى ذلك ضروبا من التمويه والخداع وشراء الذمم والتجسس والاعتداء ، لاذكاء أسباب النزاع .

وان من يرغب فى الفتنة لا تعييه أسبابها ولا تعوزه مثيراتها . وقد استطاع السلطان سليم أن يصطنع الأمير « خشقدم » شاد

الشون . وقد كان من مشتريات الغورى ومن معاتيقه . وقد تزوج بابنة الأمير « جانى بيك » . ثم حدث أن غضب الغورى على « جانى بيك » هذا ، فسجنه وصادر أمواله . وامعانا فى الكيد له ، طلب الى مملوكه « خشقدم » المذكور ، أن يُطَلِّق زوجته ــ ابنة جانى بيك ــ فأنف « خشقــدم » من ذلك ، وراوغ حتى استطاع أن يُعد لنفسه سفينة كبيرة ، فرَّ بها الى السلطان سليم ، ومعه عشرة من المماليك . فاصطنعه السلطان سليم ــ كما أشرنا ــ واتخذه عينا له على الغورى ومصر ، ليبصِّره بمواقع الضعف فيها . وقيل ان « خشقدم » وصــف للسلطان سليم ما تفشى فى مصر من الظلم والرشوة ، وانه هوَّن عليه غزوها واحتلالها .

ثم ان السلطان سليما ، قد أخذ يزحف ، لمعاودة القتال ، مع « اسماعيل شاه » . فتصدى « على دولات » لطلائع جيشه ، وقتل منهم عددا وفيرا ونهب ما معهم ، وحرم على الناس فى بلاده أن يبيعوا لهم طعاما أو علفا لماشيتهم . وهو بذلك يأخذ بثأره .

فحنق عليه السلطان سليم حنقا شديدا ، ودهمه بثلاثين ألف جندى ، شتتوا شمل عسكره ، وقتلوه هو وابنه ووزيره وملك منه بلاده ، وولى عليها مِنْ قِبَله « ابن ســوار » . وأرسل رءوس « على دولات » وابنه ووزيره هدية منه الى الغورى .. وفر أبنــاء « على دولات » الباقون ، وأخــوه عبد الرازق الى الغورى فرحب بهم وأكرمهم .

وبقتل « على دولات » خرجت بلاد التركمان وقلعة زمنطوا من يد الغورى ، وصارت تابعة للعثمانيين .

ومن الطريف أن « ابن سوار » أرسل الى الغورى ، بعد قليل ، هدية ومعها مكاتبة رقيقة يستعطفه فيها ويترضاه ، وكانت احدى خدع السلطان سليم ...

وشعر أمراء الدولة بخطر السلطان سليم يقترب من سلطنتهم : اذ أخذ يعتدى على توابعها وأطرافها حتى دخل جزء من الديار الحلبية فى طاعته . وأخذ يبنى أبراجا فى عقبة بغراض من بلاد « على دولات » .

وأكد استعدادَ السلطان سليم لغزو مصر ، الأميرُ « جانم الخاصكى » الذى كان الغورى قد بعثه رسولا الى بلاد التتار ، فعاد فى شعبان عام ٩٢١ هـ ، وتحدث عما لقيه من الاساءة والاهانة أثناء مروره ببلاد العثمانيين وروى أن السلطان سليما قد جهز أربعمائة سفينة حربية كبيرة لغزو مصر ، عن طريق ثغر دمياط والاسكندرية ، وأنه أعد عدة كتائب برية للزحف بها على الديار الحلبية .

ولما عرف أمراء الدولة هذه الأنباء نبهوا السلطان الى ضرورة الحيطة والحذر . وخوفوه من تحركات السلطان سليم . وكان أبناء أخيه قد فروا من وجهه هاربين الى الغورى ، فوجدوا منه ترحيبا زائدا واكراما .

***

الحملة الكبرى الى حلب :

واستقر الرأى على اعداد حملة كبرى جديدة ، تخرج الى حلب ، ترابط بها وتقوم بواجب الدفاع عن البلاد .

وكان الغورى قد أصبح فى سعة من المال ، وكان الوقت أمامه فسيحا . ولكن خطواته فى سـبيل الاستعداد ، كانت ـ على ما نعتقد ـ وئيدة لا تتفق وجلال الموقف وخطورته . وان كان هو قد أعلن أنه سيخرج على رأس هذه الحملة .

ومنذ شعبان عام ٩٢١ هـ الى ربيع الأول عام ٩٢٢ هـ ، وهو يعد لهذه الحملة . ولا يبرح يستعرض الجنود بميدان القلعة بين الآن والآن ، ويختار من بينهم الصالحين للقتال ، ويحثهم على الاستعداد للسفر ، ويحضهم على اعداد ما يحتاجون اليه من متاع وغيره . وينفق عليهم ما استطاع ، ويزودهم بالسلاح وأدوات القتال .

وفى ١٨ ربيع الأول المذكور ، فرق عليهم نفقة السفر ، فأعطى لكل مملوك مائة دينار ومرتب أربعة أشهر معجلة وسبعة دنانير أشرفية ثمنا لجمل . وسوّى فى الانفاق بين المماليـك الجلبان والقرانصة . ونادى بأن الرحيل فى نهاية الشهر .

وفزع الجنـود الى الاسـتعداد العـاجل ، واستكمال ما يحتاجون اليه من أمتعة وأغذية ودواب . فأغلق أصحاب الطواحين طواحينهم خوفا من أن تؤخذ دوابهم . وأغلق التجار حوانيتهم خشية أن تنهب بضائعهم . واختفى الخبز والدقيق

وشاع القحط وانتشر الغلاء . واختفى أهل الحرف والخياطون ونحوهم . وضج الناس وانطلقت الشائعات ، وسلت ألسنة النقد سياطها على السلطان . فمن قائل انه تعجل . ومن قائل انه أبطأ . ومن قائل انه أصاب ، ومن قائل انه أخطأ ... الى غير ذلك مما يتبرع به كثير من الناس فى مثل هذه الضائقات ..

وأخذ الجنود يخرجون تباعا الى بلبيس والصالحية ، كلما أتم عدد منهم استعداده .

***

واستعرض السلطان أمراء الدولة من مختلف الرتب ، واختار منهم طائفة لتصاحبه فى الحملة . وأمرهم بالاستعداد ، وحتم على كل منهم أن يصحب معه عددا من مماليكه الأخصاء يتناسب مع اقطاعه ، وتجهيزهم بما يحتاجون اليه للقتال . وهدد من لم يمتثل منهم ، بتجريده من وظائفه واقطاعه .

وأعطى كلا منهم مبلغا من المال ليستعين به على اعداد نفسه بحسب الرتب . فأعطى الأتابكى سودون العجمى خمسة آلاف دينار ، ولكل من سودون الدوادارى وأركماس وأنصباى أربعة آلاف دينار . وكل أمير مقدم آخر ثلاثة آلاف دينار . وهكذا .

واعتبر ابن اياس المؤرخ ، هذه النفقات ضئيلة بالنسبة لنظائرها فى عهد الأشرف قايتباى . فقد أعطى مثلا ، الأتابكى « أزبك بن ططخ » عند خروجه لمقاتلة العثمانيين ، ثلاثين ألف

دينار . والأمير تمراز عشرين ألفا ... الخ . ثم قال ابن اياس : « وأين الحسام من المنجل » ...

واستعرض كذلك رجال خاصته ، واختار منهم جماعة . وأمر باعداد كتيبته الخاصة ، وأخرج لهم من حواصله بالقلعة ، مجموعة من الأدوات اللازمة للخيل ، بين سروج مذهبة وبلورية وعقيقية ، وكنابيش مزركشة وغيرها . وأعد لهم الأسلحة المختلفة ، بين مكاحل ومدافع وخوذ وأتراس وغيرها .

وجمع كثيرا من العمال والصناع وأرباب الحرف ما بين بنائين وحجارين ونجارين وخدم للخيل وحفظ السلاح واعداد الطعام والشراب وغيرهم . واختار منهم جماعات ، وأعطى كلا منهم مرتب ثلاثة أشهر معجلة ، فطالبوه بالمزيد فقال لهم : « لقد مضى عليكم عدد من السنين تتناولون رواتبكم دون عمل جدى . فعليكم بالانفاق على أنفسكم فى هذه الآونة » .

وكذلك اختار عددا من القراء والوعاظ والمؤذنين والطبّال والزمّار ، واختار من المغنين أحمد بن أبى سنة ، والمحوجب والمحلاوى .

وحث الخليفة وقضاة الشرع الأربعة على الاستعداد لمصاحبته الى حلب . وكذلك كلا من خليفة سيدى أحمد البدوى ، وسيدى أحمد الرفاعى .

واستعان بأبناء « على دولات » وأخيه اللاجئين بمصر . فمنحهم ثمانية آلاف دينار ، على أن يعجلوا بالرحيل الى حلب

ويعملوا على جمع أتباعهم من التركمان ، ليقفوا بجـواره فى المعركة القادمة .

***

ومن اجراءات الأمن التى اتخذها ، توزيع عدد كبير من المماليك القرانصة على الأقاليم المحلية لحراستها وحفظ الأمن بها تحت قيادة الكشّاف . وقام برحلته الفجائية الى رشيد والاسكندرية فى رمضان عام ٩٢١ هـ لتفتيش شواطئها واتخاذ الاجراءات لحمايتها من المهاجمين . وأقام سورا كبيرا لحماية شاطىء رشيد ، وترميم أبراج الاسكندرية وتقويتها مع تزويدها بما تحتاج اليه من السلاح والجند . وعيّن الأمير « خايربيك العلائى » الشـهير بالمعمـار ، قائداً لبرج قايتبـاى فى ثغر الاسكندرية .

***

خروج الحملة الى الريدانية :

وكانت الجنود تخرج تباعا الى الريدانية ، للراحة واستكمال المعدات ، وانتظار الأوامر بالرحيل . ومنهم من نفر على عجل الى حلب .

وفى يوم الاثنين ١٠ ربيع الثانى عام ٩٢٢ هـ ، خرج طلب السلطان ــ أى كتيبته الخاصة ــ ناسلا الى مخيّمه بالريدانية . ماراً من القلعة الى باب الوزير فبـاب زويلة الى باب النصر فالريدانية . وهو مكتمل مزدان .

ويحسن أن نسجل هنا وصف المؤرخ الكبير ابن اياس ، لطلب السلطان ومحتوياته . قال بعبارته :

« وكان ما اشتمل عليه ذلك الطلب ، أنه جر فيه خمس عشرة نوبة حجن بأكوار زركش ، وكنابيش زركش ، وخمس عشرة نوبة بأكوار مخمل ملون . وأما الخيول فثلثمائة فرس ، منهـا مائة فرس ببركستـوانات فولاذ مكفت بذهب ، وشيء مخمل ملون . ومنها ثلاث طوايل بكنابيش زركش وجواغين مكفتة بالذهب ، وسروج ذهب ، ومنها ثلاث طوايل بعراقى وسروج بداوى وطبول بازات .

وكان فى الطلب أربعة وعشرون تختا بأغشية حرير أطلس أصفر ، وكجاوتان مخمل بزركش ، وهما الجوشنان .

وكان فيه ست خزائن بأغشية حرير أصفر . وكان فيـه محفتان على أبغال بأغشية حرير أصفر . وكان بالطلب خمس أرؤس خيل خاصات ، منها اثنـان برقاب زركش وكنابيش وسروج بلور مزيكة بذهب ، وشيء عقيق . وطبول بازات بلور مزيكة بذهب. وكان به فرسان بكنابيش وسروج ذهب ، وعليهما غواشى ذهب ، وعليهما هلالات ذهب عوضا عن الطيور .

وكان راكبا بالطلب ، بعض أمراء عشرات ، رءوس نوب بالشاش والقماش ، وبعض خدام من الطواشية . وكان راكبا به من المباشرين : القاضى كاتب السر محمود بن أجا ، والقاضى ناظر الجيش محيى الدين القصروى ، والقـاضى ناظر الخاص علاء الدين بن الامام ، والقاضى شهاب الدين أحمد بن الجيعان

نائب كاتب السر ، والقاضى أبو البقاء ناظر الاسطبل ، والقاضى بركات بن موسى المحتسب ، والقــاضى شرف الدين الصغير كاتب الممــاليك وناظر الدولة ، والشرفى يونس النــابلسى الأستادارا ـــ كان ـــ والقاضى كريم الدين بن الجيعان وأولاد الملكى ، وغير ذلك من المباشرين .

ثم جاء الصنجق السلطانى ، وانجرت الكوسات والصناجق السلطانية والخليفية . وكان به أربعة طبول وأربعــة زمور ، وعشرة أحمال كوسات ـــ وكان من عادة طـلب السلطان أن يكون به أربعون حملا من الكوسات .

فشق طلب السلطان من الرملة . واصطف العسكر والجم الغفير من الناس بالرملة ، بسبب الفرجة على الطـلب » .

وقد عقب ابن اياس على ذلك بكلمة ناقدة قال فيها :

« فلما مر الطـلب لم يعجب الناس ، واستقلوا الخيول التى به . وقال من أدرك طلب الأشرف برسباى لما خرج الى آمد : كان طلبه أربعمائة فرس مزينة بالبركستوانات المخمــل الملون والفولاذ . وميَّز بعض الناس طـلب « يشبك الدوادار » لمــا خرج الى « سوار » ، على طـلب السلطان ، وشكره على هذا الطلب فانه كان أرتب من طـلب السلطان » .

***

وكان كل أمير قد أعد طـلبه ـــ كتيبته الخاصة ـــ ونسلوا الى الريدانية . وتهيأ السلطان الغورى للخروج الى الريدانية فى موكب حافل . واستعد الناس للاحتشاد والمشاهدة والتفرج

والتوديع . فقد كانوا قد مضى عليهم زمن طويل لم يشهدوا موكب سلطان يخرج للغزو خارج مصر ، منذ شهدوا خروج الأشرف برسباى الى آمد .

وفى يوم السبت ١٥ ربيع الثانى عام ٩٢٢ هـ ، أخذ موكب الغورى فى التحرك نحو الريدانية ، ويحسن أيضا هنا أن ننقل تسجيل ابن اياس فى وصف هذا الموكب ــ وهو يصف ما يراه ــ ومنه يتبين كيف كان ترتيب مواكب السلاطين فى خروجهم الى الحرب ، قال :

« فلمـا انقضى أمر الأطلاب ، خرج السـلطان من باب الاسطبل ، الذى عند سلم المدرج ــ فخـرج وقدامه النفير السلطانى المسمى بالبرغشى . وهو فى موكب عظيم ، قلّ أن يتفق لسلطان أن يقع له مثل ذلك الموكب .

فكان أول الموكب الأفيال الثلاثة ، وهى مزينة بالصناجق ، ثم ترادف العسكر المنصور بالشاش والقمـاش . ثم الأمراء الرءوس النوب بالعصى ، يفسحون الناس . ثم ترادفت الأمراء الطبلخانات والأمراء العشرات قاطبة . ثم أرباب الوظائف من المباشرين ، منهم : المقر القاضوى محب الدين محمود بن أجا الحلبى كاتب السر الشريف . والقاضى ناظر الجيش محيى الدين عبد القادر القصروى ، والقـاضى ناظر الخـاص علاء الدين ابن الامام ، والقاضى شهاب الدين أحمد بن الجيعان نائب كاتب السر ومستوفى ديوان الانشاء الشريف . والقاضى شرف الدين الصـغير ناظر الدولة الشريفة وكاتب العساكر المنصـورة .

والقاضي بركات بن موسى ناظر الحسبة الشريفة وأستادار الصحبة ، والشرفي يونس النابلسي كاتب جيش الشام وأستادار العالية — كان — والقاضي أبو البقاء ناظر الاسطبلات الشريفة . وأولاد الجيعان كتَّاب الخزائن الشريفة ، وأولاد الملكي كتَّاب استيفاء الجيش وكتاب الزردخاناه . وغير ذلك من أرباب الوظائف من المباشرين . والشرفي يونس نقيب الجيوش المنصورة .

وكان حاضرا هذا الموكب ، السادات الأشراف اخوة الشريف بركات أمير مكة . فكانوا قدّام الأمراء المقدمين ثم تقدمت الأمراء المقدمون قاطبة ، وصُحبتَهم ولد السلطان المقر الناصري أمير آخور كبير ، والى جانبه الأتابكي سودون العجمي .

ثم بعد ذلك تقدمت السادة القضاة الأربعة مشايخ الاسلام وهم : قاضي القضاة الشافعي كمال الدين الطويل وقاضي القضاة الحنفي حسام الدين محمود بن الشحنة ، وقاضي القضاة المالكي محيي الدين يحيى بن الدميري ، وقاضي القضاة الحنبلي شهاب الدين أحمد الفتوحي الشهير بابن النجار .

ثم من بعدهم أتى أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد ابن المستمسك بالله يعقوب العباسي ، وهو لابس العمامة البغدادية التي بالعذبتين ، وعليه قبا بعلبكي بطرز حرير أسود . ولم يكن على رأسه صنجق خليفتي . وقد اختصر هذا الخليفة أشياء كثيرة مما كان يعمل للخلفاء المتقدمين من أقاربه .

ثم مشت الجنائب السلطانية . فكان قدامه طوالتان خيل بعراقى وسروج بغواشى حرير أصفر ، وطبول بازات . وطوالتان خيل بكنابيش وسروج ذهب ، ومياترزركش ، وبعضهم بسروج بلورمئزيك بذهب ، وشيء عقيق مزيك بمينة .

ثم تقدمت جماعة من رءوس نوب مشاة ، والشاوشية والطبردارية ، مشاة قدامه بالأطبار . ولم يكن الأوزان ولاشبابة سلطانية ، كما هى عادة السلاطين والمواكب . ثم مشت البقج والمجامع بالأغطية الحرير الأصفر . ومشى البخورى بالمبخرة .

ثم أقبل السلطان الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغورى — عز نصره — وكان الخليفة قدامه بنحو عشرين خطوة . وكان السلطان راكبا على فرس أشقر عالى بسرج ذهب وكنبوش ، وعلى رأسه كلفتاه ، وهو لابس قبا بعلبكى أبيض بطرز ذهب على حرير أسود عريض ، قيل فيه خمسمائة مثقال ذهب بنادقة .

وكان ذلك اليوم فى غاية الأبهة والعظمة . فانه كان حسن الهيئة تملأ منه العيون ، مبجلا فى المواكب .

ثم أقبل الصنجق السلطانى على رأسه . وخلفه مقدم المماليك سنبل العثمانى ، وصحبته السلحدارية بالشاش والقماش ، والجم الغفير من الخاصكية والجمدارية .

فدخل من بابى زويلة وشق من القاهرة فى ذلك الموكب الحافل . فارتجت له القاهرة فى ذلك اليوم ، وارتفعت له الأصوات بالدعاء من العوام وغيرهم . وانطلقت له النساء

بالزغاريت من الطيقان . فاستمر فى ذلك الموكب حتى خرج من باب النصر . وكان يوما مشهودا . ثم وصل الى المخيم الشريف بالريدانية » .

وهكذا ترى كيف خرج الغورى متجملا فى موكب حافل مزدان منسق . وقد حرص المؤرخ ابن اياس على وصف هذا الموكب فى كثير من الدقة والترتيب الواقعى ، ليصوره للقارىء تصويرا يعينه على ادراك بعض مظاهر الحياة فى تلك العصور . كما حرص على ذكر أسماء كبار الرجال الذين صاحبوه فى موكبه هذا مع ذكر وظائفهم ، اشعارا بالحاجة اليهم فى ادارة الأعمال . وقد صحب السلطان منهم معه الى حلب عددا كبيرا .

وقد صحب السلطان معه خليفة العصر وقضاته وبعض رجال الطرق الصوفية ، لاذكاء الروح الدينية .

***

وقد حمل الغورى معه ما ادخره فى خزائنه منذ أول سلطنته ، من الأموال والأسلحة والذخائر والتحف النفيسة . لقد أفرغ حواصله منها جميعا ، وأخذ فى جملتها ذخائر أسلافه من السلاطين ، وأسلحتهم الفاخرة ، وتحفهم النادرة . وحمل ما فى الزردخاناه ــ دار السلاح ــ من أنواع الأسلحة . وقيل ان ما حمله من الذهب معه يقدر بنحو ألف ألف دينار . عدا المعادن الأخرى .

وقد حملت هذه الذخائر والتحف والسروج الذهبية

والبلورية والعقيقية ، وغيرها فوق خمسين جملا . وحملت الأسلحة وحدها فوق مائة جمل .

وسترى — مع الألم — أنه أودعها جميعا فى قلعة حلب فور وصوله اليها . فاستولى عليها السلطان سليم ، غنيمة باردة سارت اليه بنفسها . وذلك عقب معركة مرج دابق وتحوله الى حلب .

***

وفى الريدانية أتم السلطان تعيين من وقع عليهم اختياره لمصاحبته الى حلب ، من مختلف الرجال والأتباع ، ومنهم نواب القضاة ومشايخ العلم ورجال الصوفية وأئمة السلطان ومشايخ القراء ، والموقعون وكتاب الخزانة وكتاب الزردخاناه ، والأطباء والمزينون والعمال والصناع والمغنون [1] .

وأصدر قراراً بتعيين الأمير « طومان باى » الدوادار ، « نائب غيبة » يحكم البلاد بالنيابة عنه أثناء غيابه . وتعيين الزينى « بركات بن موسى » المحتسب ، متحدثا فى شئون المملكة — أى مشرفا عليها — ومساعدا لنائب الغيبة . وتعيين الأمير « ألماس » واليا على القاهرة . الى غير ذلك .

***

وتواترت على السلطان بالريدانية ، أنباء السلطان سليم . وأنه يريد الصلح ، ولا يرغب فى القتال . وأكد هذه الأنباء

---

(١) سجل ابن اياس فى كتابه بدائع الزهور — جـ ٥ حوادث ربيع الثانى عام ٩٢٢ هـ — أسماء كثيرين من هؤلاء الرجال .

للسلطان ، الأمير « اينال باى » الذى كان قد أرسله لكشف الأخبار . فعاد يؤكد أن السلطان سليما يتجه نحو المصالحة .

وكان الأمير « خايربيك » نائب حلب ، قد بعث أيضا رسالة الى السلطان ، ادعى أن السلطان سليما أرسلها مع أحد سفرائه ليبلغها للسلطان ، فاحتجزه نائب حلب عنده ، واستولى على الرسالة وتولى هو ارسالها ...

وقرأ السلطان الرسالة ، فرأى أن السلطان سليما يتواضع له فيها تواضعا كاملا ، ويصفه بأنه «والده» وأنه يسأله الدعاء ! ويشرح له أسباب زحفه على بلاد « على دولات » ، ويقول ان « على دولات » كان باغيا وكان سببا فى الفتنة التى وقعت بين الأشرف قايتباى وبايزيد الثانى — والد السلطان سليم — ثم يعرض عليه أمر « ابن سوار » ويفوضه اليه ، ليبت فى مصيره كما يشاء . اذا أراد أن يبقيه أبقاه ، واذا شاء عزله عزله .

وفى هذه الرسالة يتنصل السلطان سليم مما نسب اليه من منع تجار المماليك وجلبهم الى مصر . ويقول انهم هم الذين امتنعوا ، بسبب الغش فى العملة المصرية .

وفيها أبدى استعداده التام لأن يفعل ما يأمر به السلطان ..

واستبشر الغورى وأمراؤه بهذه الرسالة ، وعجلوا الى التفاؤل ، ولم يأخذوا الأمر بالحيطة الواجبة . ولم يبثوا العيون والأرصاد الأمينة ، التى تنهى اليهم حقائق الأمور .

وقد تبين بعد ذلك ، أن هذه الرسالة كانت مخادعة مضللة ، قام بها « خايربيك » نائب حلب ، لمصلحة المؤامرة المخططة بينه

وبين السلطان سليم . وكان « خايربيك » قد عوّل على خيانة سلطانه وبلاده ، فبدأ يخذّل عن الاستعداد للحرب ، ويخدر أعصاب السلطان .

***

الخروج الى حلب :

ثم رأى الغورى أنه من الخير أن يخرج الى حلب . ولا سيما أن كثيرا من جنود الحملة كانوا قد سبقوه اليها . وعلى هذا بدأ الأمراء يخرجون مبكرين قبل السلطان . وصار يخرج فى كل يوم منهم ثلاثة من المقدمين ، ومع كل منهم مماليكه الأخصاء . وبلغ عدد مماليك الأتابكى سودون العجمى ــ على سبيل المثال ــ مائة وخمسة وثلاثين مملوكا .

وفى السبت ٢٢ ربيع الثانى عام ٩٢٢ هـ ، رحل الغورى من الريدانية الى حلب . فمر بقطيا وغزة . ثم دخل دمشق فى موكب عظيم ، وأمامه الخليفة والقضاة وسائر الأمراء المقدمين وغيرهم ، وجميع المباشرين .

ولقيه الأمير « سيباى » نائب الشام ومن فى نيابته من الأمراء ، لقاء حافلا . وحمل « سيباى » على رأسه القبة والجلالة . وزينت دمشق زينة بالغة . وفرشت الشقق الحريرية تحت حوافر فرسه ، ونثر تجار الفرنجة بدمشق ، فوق رأسه قطع الذهب ونثار الفضة ، ونزل بمصطبة السلطان بالقابون الفوقانى .

وبعد سبعة أيام ركب الى حمص فحماة ، حيث احتفل به نائبها « جان بردى الغزالى » احتفالا عظيما . ثم بلغ حلب فى يوم الخميس ١٠ جمادى الثانية ، فكان يومه بها مشهودا ، وحمل نائبها « خايربيك » على رأسه القبة والجلالة . واستقر بها ركبه ، وأودع ذخائره وتحفه وأمواله وأسلحته فى قلعة حلب . وجعلها أمانة بين يدى نائب القلعة ، الأمير « قانصوه الأشرفى » ...

***

وأقام الغورى بحلب يدبر أموره . وكنا نود لو أنه عنى حينذاك بتدريب جنوده ، ورأب الصدع بين طوائفهم ، وبخاصة بين الجلبان والقرانصة . وفطن الى حيل السلطان سليم ومخادعاته ، وكشف شبح الخيانة بين أمرائه وقضى عليه فى حزم . وتودد الى أهل حلب وعساكرها ، وعالج جراحها من جراء تجريدته الأولى اليها .

ولكنه لم يفعل ، ولهجت نفسه بمعانى الصلح . وأوعز الى خطبائه ووعاظه أن يجعلوا معانى الصلح مناط الخطابة والوعظ .

وقد نبهه الأمير « سيباى » نائب الشام ، فى صراحة تامة ، الى ما يدبره له « خايربيك » نائب حلب ، من الغدر والخيانة ، وحرّضه على قتله والخلاص منه ، لائتماره مع أعداء السلطان . فتردد الغورى ، ثم لم يسمع لهذه النصيحة الصادقة . وانصاع لرأى « جان بردى الغزالى » الذى أشار بترك « خايربيك »

حذرا من وقوع الفتنة بين الصفوف ، فى هذه اللحظة الحرجة .

ووزع الغورى الأجور والرواتب على الجنود ، وزودهم بالسلاح . ولكنه كان كريما فى ذلك ، مع المماليك الجلبان ، شحيحا مع القرانصة ، مما أدى الى استفحال الحقد والكراهية بين الطائفتين ، وهما عماد جيشه .

***

خدعة جديدة ووفد للمصالحة :

وسرعان ما وفد الى الغورى بحلب ، رسل من لدن السلطان سليم ، يرأسهم « ركن الدين » قاضى عسكره ، و « قراجا باشاه » أحد كبار أمرائه . فعرضوا عليه ود سيدهم وطاعته . وفاوضوه فى الصلح .

فأخذ الغورى يعتب عليهم ، لما فعله سلطانهم من الاعتداء على بلاد « على دولات » ، ولتنقصه من مقامه . فقالوا له : ان سلطانهم فوضهم تفويضا مطلقا فى الاتفاق معه . وأمرهم بالخضوع لأمره ورأيه بغير مشاورة . وأطلعوه على فتاوى علمائهم بجواز قتل الشاه اسماعيل الصفوى . ورجوه فى عدم التدخل بين سلطانهم وبين هذا الشاه . وأكدوا له أن سيدهم لا هدف له الا قتال الشاه اسماعيل ، وأنه لا يفكر فى محاربة مصر وسلطانها .

وامعانا فى المخادعة ، ذكروا له أن سلطانهم يعتبره والدا له ، وأنه يسأله الدعاء ... وقدموا اليه والى الخليفة المتوكل

والأتابكى سودون العجمى ، جملة من الهدايا النفيسة ، ما بين أسلحة ومماليك ومنسوجات وسجاجيد ونحوها . وذكروا له أن سلطانهم يستهديه كمية من السكر والحلوى ...

وقد أكرم الغورى وفد المفاوضة . وحمَّلهم الى سلطانهم هدايا ثمينة قدرت بنحو عشرة آلاف دينار . ومعها مائة قنطار من السكر والحلوى . وأرسل معهم الأمير « كرتباى الأشرفى » ليقوم بتقديم هذه الهدايا ...

وكان الغورى قد أرسل الى السلطان سليم ، أثناء وجود وفده لديه ، رسولا من لدنه هو الأمير « مغلباى » ومعه مكاتبة تتضمن شروط الصلح التى يقترحها .

وأذن للوفد بالعودة ، قبل أن يعود رسوله « مغلباى » ويطلعه على تتيجة مكاتبته ومقترحاته . وسافر « كرتباى » لتقديم الهدية . وما ان بلغ مدينة « عينتاب » ، حتى بلغته أخبار « مغلباى » وما لقيه من السلطان سليم . فلقد أساء استقباله ورفض وساطته ، واحتقر مكاتبته ومقترحات سلطانه ، وسخر مما جاء فيها من حديث الصلح ، وقبض عليه وقيده بالحديد ، وهمَّ بشنقه لولا شفاعة بعض وزرائه ، وأمر بتحميله روث الخيل على رأسه ، الى غير ذلك من ضروب الاهانة .

وقيل ان سبب حنقه على « مغلباى » أنه دخل عليه ، وهو فى ملابس الحرب !.

وأسرع « كرتباى » عند سماع هذه الأنباء ، بالعودة الى سلطانه ، ونقلها اليه . وأخبره أن طلائع العثمانيين وصلت الى

« عينتاب » وأن نائبها قد هرب . وأنهم استولوا على قلعة ملطية وبهنسا وكركر وغيرها .

***

الجهر بالعداء :

وعاد الأمير « مغلباى » بعد قليل ، وهو فى أسوأ الأحوال . فقص على سلطانه قصة اهانته واذلاله . وأخبره أن السلطان سليما رفض الصلح ، وقال له : « قل لأستاذك يلاقينى على مرج دابق » .

فلم يعد بد من الخروج الى المعركة . فأخذ الغورى يرتب أمورها . وأصدر قرارا بتولية الأمير « عبد الرازق » أخى « على دولات » على جميع بلاد جده ذى الغادر . ليكسبه بذلك شرعية فى المطالبة بها والقتال عنها . وبعثه مع أتباعه الى مكان المعركة ليقاتل بجواره . وأمر « خايربيك » نائب حلب بالخروج على رأس أمراء حلب وجنودها فخرج بفرسانه ومعهم نحو خمسة آلاف من المشاة . وأمر « سيباى » نائب الشام ، ونواب طرابلس وصفد وحمص وغزة ، بالخروج الى مكان المعركة .

ونودى فى العسكر بعامة بالاستعداد للخروج من حلب ، والنزول على « حيلان » ، فخرجوا .

ولم نعرف بالضبط كم كان عدد الجنود الذين شهدوا معه معركة مرج دابق . وقد قدرهم نجم الدين الغزى المؤرخ بنحو

ثلاثين ألف جندى [1] . وقدرهم الشاعر محمد بن قانصوه بمائتى ألف ــ كما أشرنا ــ .

وخرج الغورى بعد ظهر يوم الثلاثاء ٢٠ رجب عام٩٢٢ هـ الى « حيلان » وفى صحبته الخليفة والقضاة الأربعة . فأقام ليلة ، ثم برحها الى « مرج دابق » فأقام به الى الأحــد ٢٥ رجب .

***

معركة مرج دابق :

وأحس الغورى فى صباح الأحد المذكور ــ ٢٥ رجب عام ٩٢٢ هـ ــ بظهور طلائع الجيش العثمانى عن كثب . ويبدو أن ذلك كان عند الفجر . فصلى الصبح وركب الى « زغزغين وتل الفار » وعلى رأسه تخفيفة صغيرة ، وعلى جسده ثوب أبيض ، وعلى كتفه طبر .

وصار يرتب عسكره بنفسه . فكان موقفــه فى القلب . وحوله أربعون مصحفا شريفا فى أكياس من الحــرير الأصفر يحملها جماعة من الأشراف . وكان من بينها مصحف شريف بخط الامام عثمان بن عفــان ــ رضى الله عنه ــ ومن حوله جماعات من الصوفية والأشراف ، ومعهم أعلامهم ما بين حمراء وخضراء . والصنجق السلطانى ــ العَلَم ــ خلف السلطان

---

(١) الكواكب السائرة ج ١ فى ترجمة قانصوه الغورى . ــ ورسالة ابن زنبل فى تاريخ النزاع بين الغورى والسلطان سليم .

بنحو عشرين ذراعا . ووقف مقدم المماليك « سنبل العثمانى » تحته ، وكذلك قضاة الشرع والأمير تمر الزردكاش ، ومجموعة من الخاصكية ، وحولهم أمراء مصر بمماليكهم . وبجوارهم عامة العسكر السلطانى المصرى من الجلبان والقرانصة وغيرهم .

وركب الخليفة المتوكل على الله ، ووقف على يمين السلطان ، وعلى كتفه طبر ، وعلى رأسه الصنجق الخليفتى . ووقف بازاء الخليفة الصبى العثمانى الأمير « قاسم بك » أخو السلطان سليم الذى فر منه الى الغورى . وعلى رأسه صنجق من الحرير الأحمر . وقد رأى الغورى أن يبرزه أمام الجند العثمانى فلعلهم يلتفون حوله ويخذلون سلطانهم ...

وجعل الأمير « سيباى » نائب الشام ، على ميمنة الجيش ومعه جنود الشام . والأمير « خايربيك » نائب حلب على ميسرته ، ومعه جنود حلب .

واقترب الجيشان : العثمانى والمصرى ، حتى صار كل منهما بازاء الآخر .

وبدأ القتال . فبرز الأمير الكبير « سودون العجمى » والأمير « سيباى » وعاضدتهم جموع من المماليك القرانصة — دون الجلبان — فقاتلوا قتالا شديدا ، كانت نتيجته هزيمة الجيش العثمانى هزيمة منكرة ، وغنم منه المصريون سبعة صناجق ، وعددا من المكاحل ، وأسروا جمعا كبيرا من رماة البندق ، وقتلوا ما يزيد على عشرة آلاف جندى .

وخارت معنوية السلطان سليم ، أمام هذه البسالة النادرة ، حتى هم بالفرار أو طلب الأمان ـ على ما روى ـ .

وكانت هـذه بداية موفقة للجيش المصرى . ولو استمر يقاتل على قلب رجل واحـد ، لانتهى الى ظفر محقق حاسم ، ولتغير وجه التاريخ .

ولكن الدسيسة والخيانة أطلت كل منهما بقرونها ـ وبدأت آثار الوقيعة والائتمار والغدر تظهر فى ميدان المعركة . فسرعان ما فشت القالة بين صفوف الجنـد ، بأن السلطان أوحى الى الجلبان بألا يقـاتلوا ، حتى يصطلى القرانصـة وحدهم بنار المعركة ، فيتخلص منهم . وصدق القرانصة هذه القالة ، وكانت لهم على صدقها شواهد كثيرة . فثنوا العزم عن القتال فى هذا الموقف الضـنك ، وتراخوا عن اتمام المعـركة الى حد الظفر الحاسم ، وغفلوا عن أن الطامة اذا نزلت عمت .

واسترد العثمانيون معنويتهم واستأنفوا القتـال بنشاط جديد وحماسة بالغة ، وهجمـوا على الجيش المصرى هجمة صادقة ، فزحزحوه عن مكانه ، وقتلوا كثيرا من فرسـانه ، فاستشهد الأمير الشجاع سودون العجمى ، والأمير الباسل سيباى ، وغيرهما . وأسر الأمير «قانصوه بن سلطان جركس» ، وغيره . وخر الجنود صرعى أمام بندق الرصاص الذى أصلاهم به رماة العثمانيين ، فلم تجد فروسيتهم أمامه فتيلا .

وفى تلك الأثناء كان طرف آخر من أطراف الخيانة قد ظهر . فقد انسحب الأمير « خايربيك » نائب حلب من ميسرة الجيش ،

وأظهر الهزيمة دون قتال . وتقهقر بمن معـــه فارين الى حلب . وذاع نبأ فراره ، فدب الرعب فى أوصال الجيش ، والعثمانيون يثخنون فيه ، فسقط منه مئات القتلى . وامتلأ المرج المشئوم بالجثث والرءوس وبدا شبح الهزيمة مخيفا مفزعا . فتفلتت بقية الجنود من الميدان لواذا لا يلوون على شيء ، ناجين بأنفسهم من هلاك محقق .

ولبث الغورى ــ قائد المعركة ــ واقفا فى مكانه من القلب لا يتزحزح تحت صنجقه . وهو يرى جيشه العظيم يمزقه ذئاب العثمانيين . ويرى عسكره يلوذ بالفرار .

وقد وقف من حوله نفر من خاصته قليلون . فأخذ يستغيث وينادى عسكره الهارب ويقول : « هذا وقت المروءة ... هذا وقت الغوث ... » فلم يستجب له أحد ، حتى بلغ به اليأس مبلغه ، فالتفت الى مشايخ الصوفية الواقفين قريبا منه وقال لهم : « ادعوا لى الله بالنصر ، فهذا وقت دعائكم » ...

واشتعل قلبه حزنا وكمدا ، واتقدت فى نفسه نار الحسرة . وكان اليوم شديد الحر ، ورحى الحرب دائرة لا تهدأ ، وانعقد بين العسكرين غبار كثيف ، فأظلم الجو حتى صار المحاربون لا يرى بعضهم بعضا ، وساد الاضطراب والذعـــر ، وبدت الكسرة بارزة لعينى الغورى ولمن حوله من المقربين . وخشى الأمير « تمر الزردكاش » مغبة الموقف على السلطان ، فطوى أعلامه وقال : « يا مولانا السلطان ان عسكر ابن عثمان قد

أدركنا ، فانج بنفسك واهرب الى حلب » . فلوى السلطان عنان فرسه ليهرب ...

***

نهاية الغورى :

وقد روى أن الغورى لما رأى عسكره يهرب أمام عينيه ولا يسمع أحد منهم نداءه . ورأى رجال خاصته وأمراء دولته يقتلون ، تحقق من الهزيمة ، فأصيب بالشلل وبطلت شقته وارتخى فمه . فطلب جرعة ماء ، فجاءوا له بها فى طاسة من الذهب . ثم لوى عنان فرسه ليهرب ، كما أشير عليه ، فخطت به فرسه قليلا ، ولكنه لم يتماسك فهوى من فوقها الى الأرض ، وزهقت روحه التياعا وحسرة .

وقيل ان الخيل داسته حينذاك ، وصعدت الدماء من حلقه . ومن حين موته لم يعلم له خبر ، ولم يعثر له على أثر . ولم تظهر له جثة بين جثث القتلى . وكأن الأرض انشقت فابتلعته فى الحال . وقيل ان الذئاب أسرعت اليه فنهشت جثته ...

ويذكر ابن زنبل الرمال أن الغورى لما وقع على الأرض ، رأى أتباعه ــ ومنهم الأمير « أقباى الطويل » والأمير « علان » أن يقطعوا رأسه ويرموه فى جب ، حتى لا يستطيع العدو أن يميز جثته من بين الجثث ، فيجز رأسه لكى يطوف به فى جميع بلاد الروم . فقطعوه[1] .

---

(١) تاريخ النزاع بين الغورى والسلطان سليم ، لابن زنبل الرمال .

وهكذا كانت نهاية الغورى ونهاية عسكره الضخم وجيشه العظيم ، فى موقعـــة لم تدم نهارا كاملا . اذ بدأت من طلوع الشمس الى ما بعد الظهر . وهكذا كانت خاتمة ملكه وحكمه ، لقد قضى عليه فى ساعات من نهار ، بعد أن تصرف فى ملك مصر والشام وحلب والحجاز وسائر البلاد التابعة ، مدة امتدت زهاء خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وخمســـة وعشرين يوما . من مستهل شوال عام ٩٠٦ هـ الى يوم ٢٥ رجب عام ٩٢٢ هـ .

وهو السلطان الوحيد من بين ســـلاطين المماليك ، الذى خرج للدفاع عن بلاده وسلطنته وكرامته ، فاستشهد فى المعركة تحت أعلام بلاده وبعيدا عنها ـــ كما نوهنا ـــ .

***

نتائج مباشرة للمعركة :

تعتبر معركة « مرج دابق » من المعارك الفاصلة . وكان لها نتائج مباشرة بالنســـبة الى مصر . فـــقد أنهت حكم الغورى وقضت على سلطنته ـــ كما ذكرنا ـــ وكانت ضربة قاصمة للحكم المملوكى . وقد قتل فيهـــا عـــدد كبير جدا من أمراء الدولة وجنودها ، ولا سيما القرانصة .

وفَوْرَ المعركة استولى العثمانيون على مخيمات السلطان والأمراء وعامة الجيش ، وغنموا ما تحتويه من الأمتعة والأموال والأسلحة والذخائر ونحوها ، وهى كثيرة لا تعد ولا تحصى .

وفرّت فلول الجيش المصرى قاصدين الى حلب ، للاحتماء

بها ، وربما لتنظيم صفوفهم انتظارا للقتال . ولكن أهل حلب وجدوا فيهم فرصة فريدة للانتقام لما أصابهم من الأذى والضرر على يد جنود الحملة الأولى ، وخشوا على مدينتهم مغبة وجود هذه الفلول بها . ولهذا وثبوا عليهم وثبة صادقة وقاتلوهم قتالا شديدا ، ومنعوهم من دخول المدينة ، ونهبوا ما معهم . حتى قيل انه جرى على هذه الفلول من أهل حلب ، أشق مما جرى عليهم من العثمانيين ...

واضطرت هذه الفلول الى اللياذ بطريق دمشق ، فبلغوها وهم فى أسوأ حال . ثم أخذوا طريقهم الى مصر . وفى الطريق بين قطيا والصالحية لقيتهم جماعات من العــربان ، فقاتلوهم أيضا ونهبوا ما تبقى معهم ، وجرى عليهم منهم مرة أخرى ، مثل ما جرى عليهم من أهل حلب . وما بلغوا القاهرة الا بشق الأنفس ، مشعثين لا يكادون يؤمنون بالنجاة ... وتلك عاقبة التفرق والخيانة والجبن .

وفتحت هذه المعركة الطريق سهلا الى حلب ، أمام السلطان سليم . وقد أصبحت المدينة وليس فيها من جنــود مصر من يدافع عنها . وكان نائبها الخائن « خايربيك » قد أعد العــدة لتسليمها . وكان بعد فراره اليها من المعركة ، أشاع أن الغورى قد قتل ــ ولم يكن قد قتل بعد ــ وكان الناصرى محمد بن الغورى مقيما فى حلب ، ينتظر نتيجة المعركة ، ومعه كثير من أتباعه ، فحثه « خايربيك » على العودة السريعة الى القاهرة هو وأتبــاعه ، لكى يبايع بالسلطنة بدلا من أبيــه . فخرج

الناصرى محمد على عجل . ــ وهكذا أخلى « خايربيك» المدينة من كل عنصر من عناصر المقاومة .

وتحول السلطان سليم الى حلب ، فملكها دون مدافع . ورحب به أهلها ترحيبا عظيما ، ودخلوا سراعا فى طاعته ، ودعوا له بالنصر والتأييد ...

وكان الخليفة المتوكل على الله وقضاة الشرع ــ ما عدا القاضى الحنفى الذى استطاع الفرار والعودة الى القاهرة ــ قد وقعوا فى الأسر . فاستقدمهم السلطان سليم اليه ، وسأل المتوكل عن أصله ونسبه ، ثم أنعم عليه ووعــده باعادته الى بغداد . أما القضاة فقد وبخهم توبيخا شديدا لأنهم يأخذون الرشوة على الأحكام الشرعية ، ولأنهم يسعون بالأموال لولاية القضاء ، ولأنهم لم ينصحوا سلطانهم بالكف عن المظالم ...

وكان الأمير « قانصوه الأشرفى » نائب قلعة حلب ، قد فر . فاستولى عليها السلطان سليم ، وغنم ما فيها من ودائع الغورى وذخائره ونفائسه ، وودائع أمرائه وعسكره . وهى ما بين تحف وأموال وأسلحة وذهب ، جمعها الغورى وبذل فى جمعها ما بذل ، فضاعت فى ساعات . ولو أبقــاها بالقاهرة ، لعاونت البلاد على ما أصابها من المحن .

وباستيلاء السلطان سليم على حلب ، فتح الطريق أمامه الى الشام ومصر .

***

مصر بعد مصرع الغورى :

ساد الحزن أرجاء البلاد ، وملأ الذعر فجاجها . وتنادى الناعون فى كل جانب من جوانب القاهرة . وانتهز هذه الفرصة كثير من العربان ، فقتلوا ونهبوا ، ولا سيما أتباع شيخ العرب « أحمد بن بقر » .

وملأت الفوضى ربوع الشام ومصر ، واستغرقت عودة فلول الجيش أسابيع ، كان الجنود فى خلالها يعودون فرادى وجماعات ، وهم فى أبأس الأحوال . وساور القلق نفوس الناس ، وأصبحوا فى حيرة من أمر المستقبل . وعول بعض المماليك الجلبان على القيام بفتنة عظيمة ونهب خان الخليلى وقتل من فيه من التجار الأروام ، بحجة انتمائهم الى العثمانيين ، وشماتتهم فى مقتل الغورى . فمنعهم طومان باى الدوادار نائب الغيبة .

***

وكان أمر الخونة الذين مالئوا الأعداء ، قد كُشف . وعُرف منهم ــ فضلا عن خايربيك وخشقدم شاد الشون : ابراهيم السمرقندى ويونس العادلى والعجمى الشنقجى الذى كان مضحك الغورى ونديمه .. !

فأمر طومان باى باقتحام بيت السمرقندى والعادلى والقبض على أبنائهما وحاشيتهما ، ومصادرة حواصلهما وأمتعتهما .

وقبض على الأمير « قانصوه الأشرفى » نائب قلعة حلب ،

الذى فر وترك القلعة نهبا ميسرا للسلطان سليم ، دون أن يبذل أى مجهود فى حمــايتها أو الدفاع عنها ، أو ينقــل ما فيها من الذخائر والأموال .

***

وكان هناك بعض الأمراء يتطلعون الى منصب السلطنة . ولكن منطق الحوادث كان يدل على أن السلطان الجديد الذى ينتظــر اختياره هو الأمير « طــومان باى » الدوادار نائب الغيبة .

وأجمع أمراء القاهرة ، على وجه التقريب ، على اختياره سلطانا للبلاد ، فامتنع امتناعا شديدا لحرج الموقف وقلة المال وضعف وسائل الدفاع وتفرق قلوب الأمراء والجند . فوسطوا بينهم الشيخ « أبو السعود الجارحى » أحد المتصوفة حينذاك ، حتى رضى طومان باى بالسلطنة ، على شرط أن يطيعه الأمراء ويعاونوه . ولقبوه بالملك الأشرف .

وكان موقفه لا يحسد عليه . فالخزائن خاوية والجنود لم يعد لهم هم سوى النهب والسلب ، والأمراء عصاة ، والفوضى ضاربة بجرانها ، والناس فى قلق وذعر لا يعــرفون المصير ، والخشية من العدو الزاحف مفزعة . والعربان يناصبون الجراكسة العداء ، ويزندون فى فزع الناس بفتكهم ونهبهم .

والعجيب أن هذه الشدة النازلة لم تستطع أن توحد بين القلوب ، وتجمع بين الصــفوف . ولهذا وجد طــومان باى

صعوبات لا حد لها فى سبيل الاستعداد لقتال فُرض عليه فرضا ، وقهر عليه قهرا .

***

وعلى الرغم من ذلك كله ، استطاع « طومان باى » بما بذل من حيلة وجهد ، وبما أوتى من ايمان وشجاعة وجلد ، أن يجمع المال ، ويصنع السلاح ، ويحشد الرجال ، ويرسم الخطة ، للقاء المنتظر .

غير أنه كان دون استعداد العثمانيين ، الذين زادهم الظفر والنصر قوة الى قوتهم ، والذين استولوا على ذخائر مصر فى قلعة حلب فَأثْروا بها ، والذين زحفوا من حلب الى دمشق ، الى حدود مصر ، دون أن يجدوا مقاومة تذكر .

وكانوا الى جانب ظفرهم وازدياد قوتهم وامكانياتهم فى القتال ، يطيعون سلطانهم فيما يأمر وينهى . فكانت قلوبهم متحدة ، وأهدافهم واحدة ، فضلا عن دقة نظامهم ، وتعزيزهم بفرق المدفعية الحديثة ، ورماة البندق .

وظل العثمانيون فى زحفهم حتى بلغوا الريدانية فى ظواهر القاهرة . وكان طومان باى قد استعد للمعركة فيها على كره منه . وكان من رأيه الخروج بعيدا لمقاتلة العدو ، فلم يطعه الأمراء وفضلوا انتظار العدو حتى يقتحم عليهم ديارهم .

وفى يوم الخميس ٢٩ ذى الحجة عام ٩٢٢ هـ ، وصل عسكر السلطان سليم الى الجبل الأحمر ، فتلاقى العسكران المصرى

والعثمانى على أطراف الريدانية ، فكانت بينهما موقعة أروع وأشد هولا من موقعة مرج دابق .

وبالرغم من بطـولة « طومان باى » واستبسال كثير من أمرائه وجنوده ، دارت عليه الدائرة . ودخل العثمانيون مدينة القاهرة ثانى يوم معركة الريدانية ، فى موكب حاشـد ، على رأسه الخليفة المتوكل ووزراء السلطان سليم ، وقضاة الشرع الثلاثة : الطويل والدميرى والفتوحى . ومعهم الخونة : خايربيك ويونس العادلى وخشقدم شادالشون .

ثم تحول السلطان سليم الى القاهرة فدخلها دخول الفاتحين وسلمت اليه مفاتيح القلعة . وبذلك تم هذا الاحتلال المشئوم .

***

ولم يهدأ « طومان باى » ، وظـل يجمع الأنصار وينظم الصـفوف ويرسم الخطط ، للمقـاومة والدفاع ، وللايقاع بالعثمانيين أينما كانوا . وانضم اليه جموع حاشدة من فتيان القاهرة وشجعانها وأشدائها . فظلوا يناوئونهم زمنا طويلا ، فى حماسة منقطعة النظير ، وفى شهامة بالغة ، ووقعت بين الفريقين وقائع مروعة فى بولاق وفى الصـليبة وفى الجـيزة وغيرها . وشهدت هذه الأماكن قصصا أسطورية لأبطال من الچركس والمصريين ، وهم يدافعون الغزاة عن أرضهم وبلادهم العزيزة . كما شـهدت ضروبا من الخيانات وخسة الضـمير من بعض العربان . وتكشف موقف « جان بردى الغزالى » بتضليلاته

لطومان باى ، وتعـويقاته لحركة المقـاومة . وتخـذيله عن العثمانيين .

وأخيرا فر البطل «طومان باى» ، الذى كان يعتبر الدفاع عن البلاد واجبا دينيا ، الى « تروجة » بالغربية ، عند صديقه شيخ العربان « حسن بن مرعى » فأمنه على حياته ، ثم وشى به الى السلطان سليم !! فقبض عليه وشـنقه على باب زويلة ، يوم الاثنين ٢٢ ربيع الأول عام ٩٢٣ هـ ، والناس تبكى له شفقة عليه واكبارا لشهامته .

***

واستتب الأمر بمصر والشام وحلب للسلطان سليم . ودخل أمير مكة « الشريف بركات » فى طاعته . وبذلك ورث مـلك الجراكسة .

وقد أقام بالقاهرة يرتب أمورها ويدبر أحوالها . وجعل « خايربيك » نائبا عنه فى مصر ، و « جان بردى الغزالى » نائبا عنه فى الشام .

وأمر بحمـل أموال مصر وذخائرها وتحفهـا ونفائسها ومخطوطاتها ، الى عاصمة ملكه . وجمع مئات من الصناع والعمال وذوى الخبرة وأهل الحرف وغيرهم ، فأرحلهم الى القسطنطينية ، وأرحل اليها أيضا الناصرى محمد بن الغورى ، والمتوكل على الله الخليفة العباسى .

ثم عاد السلطان سليم الى عاصمة ملكه فى يوم الخميس ٢٣ شعبان عام ٩٢٣ هـ .

ويعتبر هذا الاحتلال نتيجة غير مباشرة لمعركة مرج دابق . وبه زالت دولة المماليك ـــ البحرية والجركسية ـــ بعد أن حكمت هذه الرقعة الواسعة الهامة من الوطن العربى الكبير ، من حدود ليبيا الى الفرات ، ومن شمال حلب وشرقها الى جنوب الحجاز . وحفظتها موحدة مترابطة ، زهاء ٢٧٥ سنة ، دائبة على نشر الحضارة الاسلامية والعربية ، ومكافحة أعداء الدين والعروبة .

وبالاحتلال العثمانى صارت مصر تابعة بعد أن كانت متبوعة . ومحتلة بعد أن كانت مستقلة . ونيابة بعد أن كانت سلطنة وتابعة لدولة الخلافة ، بعد أن كانت داراً لها . وبه حرمت أسبابَ النهوض ودخلت فى دور تأخر وانحلال طويل ، وفى طور ضعف وفاقة وجهل . ولم يكن ما أصاب الشام وغيرها من بلاد السلطنة المصرية ، بأقل مما أصاب مصر . ودخلت جميعا فى حالة من التفكك والتقاطع ، بعد أن عاشت معا فى حياة كريمة يظللها التعاون والألفة والأخوة والوحدة .

الفصل التاسع

الغورى : صفاته وأخلاقه وما له وما عليه

نعرض فى هذا الفصل لبعض النواحى النفسية التى تجلت فى الأشرف قانصوه الغورى ، والتى تكمل ما رسمناه له من جوانب فى الفصول السابقة . ذاكرين فى خلال ذلك أشياء من محاسنه ومساوئه .

وقد وصفه ابن اياس المؤرخ فقال : « كانت صفته طويل القامة غليظ الجسد ذو كرش كبير ، أبيض اللون ، مدور الوجه ، مشحم العينين ، جهورى الصوت ، مستدير اللحية ، ولم يظهر بلحيته الشيب الا قليلا .

وكان ملكا مهابا جليلا مبجلا فى المواكب ملء العيون فى المنظر . ولولا ظلمه وكثرة مصادراته للرعية وحبه لجمع الأموال لكان خيار ملوك الچراكسة ، بل وخيار ملوك مصر قاطبة » .

***

ويبــدو أن الغورى لم يكن مزواجا ، وان كان ــ على ما يبدو ــ قد تزوج بأكثر من واحدة . فقد روى ابن اياس : أنه فى ١٩ ربيع الأول عام ٩٢٢ هـ توفيت « خوند جان سكر »

الچركسية ، مستولدة الغورى . وهى أم ولده الذى توفى فى سنة ٩١٠ هـ » .

وهذه المتوفاة — على ما يبدو من عبارات ابن اياس — غير أم ابنه الناصرى محمد ، الذى خرج معه الى حلب ، ثم عاد الى القاهرة بعد معركة مرج دابق ، ثم صحبه السلطان سليم معه عند عودته الى القسطنطينية .

أما أولاده فيقول ابن زنبل الرمال : ان الغورى رزق ثلاثة من الأبناء الذكور . ولم يعش منهم غير الناصرى محمد .

***

ميله الى السلم :

ولعل من أبرز صفات الغورى واتجاهاته ، ميله الى السلم ، وتفضيله حياة الموادعة والاستقرار عن حياة المناهضة والاثارة وقد نوجه الى هذه السياسة شيئا من النقـد . ولكن الذى لا شك فيه أنه باتنهاجها هيأ للبلاد ، نسبيا ، جوًّا من السلم استمر نحو سـتة عشر عاما ، اذا ما صرفنا النظـر عن الفتن الداخلية وتجاريده الصغيرة الى الحجاز والهنـد والسواحل الشمالية .

وقد جنح منذ ولايته الى سياسة الدفاع عن بلاد سلطنته ، فلم يكن يلجأ الى تكتيب الكتائب وتجريد الحملات ، الا عندما يحس أن هناك معتديا على أطرافها . وكان يسرع الى ابطال الحملة ، عندما يعلم أن المعتدى قد كف عن اعتدائه .

اهتمامه بالمنشآت :

وازاء كفه عن المغامرات الخارجية ، اهتم اهتماما بالغا بانشاء المرافق النافعة للناس سواء أكان ذلك فى داخل البلاد أم فى خارجها . كما عنى بانشاء القصور والدور والحوانيت وما الى ذلك مما سبق لنا بيانه . وحقا عنى بجوار المرافق العامة ، بمنشآته الخاصة . ولكنه لم يفتر عن انشاء المساجد والمدارس والمكاتب والقناطر والجسور والأسوار والبروج وغيرها .

حبه للعلوم والفنون :

وقد ألمعنا الى ما كان بالبلاد فى عصره من ألوان العلم والثقافة .ورأينا أنه كانت تدرس بها علوم الدين واللغة العربية ، وانتشرت بها جملة من الفنون والصناعات ، كالطب والهندسة الزراعية وهندسة البناء وصناعة السفن والأسلحة وغير ذلك .

وقد شجع الغورى حياة العلم والفن . ولعل اهتمامه باقامة المبانى ، وتجميلها بضروب من الزخرف والزينة ، كان أحد مظاهر هذا التشجيع . وقد رأيناه فى عام ٩٠٨ هـ بعد الفراغ من تشييد مسجده بالشرابشيين ، ينعم على « اينال » شاد العمائر الذى أشرف على بنائه ، بلقب الامارة ، ويمنح غيره من المهندسين والعمال والصناع خلعا نفيسة ومبالغ مالية .

ورأيناه فى عام ٩١٠ هـ يشيد مدرسته قبالة مسجده ، ويقرر بها الدروس الدينية ، ويعين بها عددا من الصوفية .

وكان يذهب بنفسه من آن الى آخر ، للكشف عن جسر

يصلحه ، أو برج يرممه ، أو قصر يشيده ، أو خليج يحفره . ويراجع المهندسين والعمال ، ويدلهم على نواحى النقص ليتلافوها ، ويوضح لهم رأيه ليتبعوه .

ومن الأمثلة حفر خليج الزعفران . فقد أمر بحفره فلم يتم كما يريد . فأمر فى ربيع الثانى عام ٩١٧ هـ باعادة حفره ورسم للأمير « أنصباى » حاجب الحجاب أن يتوجه الى قناطر الأوز ، ويباشر حفر هذا الخليج بنفسه . فأحضر الجراريف والأبقار والعمال ، وسهر على العمل على تم حفر الخليج . وذهب السلطان للكشف عليه فلم يرق له هذا الحفر ، ووبخ الأمير «أنصباى» وأمر مرة أخرى باعادة الحفر وفق مارسم له . ففعل .

وقد كان الغورى ذا حظ لا بأس به من العلوم الدينية ، مولعا بقراءة كتب التاريخ والسير والقصص . ويقول ابن اياس : « وكان مغرما بقراءة التواريخ والسير ودواوين الأشعار » . ويصفه الشريفى الشاعر الذى ترجم له الشاهنامة بقوله نه مادحا : « ما تذكر كلمة من العلم والمعرفة الا أنت محيط بها ، وقد أوتى قلبك حظا من كل معرفة . كأن ضميرك اللوح المحفوظ» . ويقول : « لك يد فى كل فن ، ولك مشاركة فى كل موضوع ، وكم مشكل لا تناله الأيدى حللته بادراكك . الانشاء والشعر والغزل والعلم والبحث والجدل ، كل هذه نراه فيك بحرا زاخرا . لقد تحير الخلق فيك » [1] .

---

(١) مجالس السلطان الغورى ص ٣٩ ، ٤٠ . والعبارة من ترجمة المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام لشعر الشريفى .

وكان الغورى دءوبا على عقد مجالس العلم والمناظرة بالقلعة . يدعو اليها ويشاهدها ويشارك فيها مشاركة جادة . واعتاد ان يعقدها مرة أو أكثر فى كل أسبوع . ويدعو اليها امامه وبعض العلماء الأعلام . فيطرقون فى مناقشاتهم مسائل متنوعة فى الفقه أو التفسير أو التاريخ أو الأدب أو السياسة أو غير ذلك . وكان أحدهم يطرح السؤال ، فتدور المناقشة فيه والاجابة عليه ، بينهم . والغورى يشارك بالسؤال وبالجواب .

وقد نشر المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام عام ١٩٤١ م كتابا بعنوان « مجالس السلطان الغورى » ضمنه مقتبسات من آراء الغورى ومحاوراته مع مشاهدى مجالسه من الأئمة والعلماء . وممن كان يشهدها الشيخان : شمس الدين السمديسى ، ومحب الدين المكى ، من أئمة السلطان . وبرهان الدين بن أبى شريف قاضى قضاة الشافعية ، ومحمود بن أجا الحلبى كاتب السر وصاحب ديوان الانشاء .

معرفته بالعربية وبالشعر :

وفضلا عن معرفته بلغته التركية ، معرفة أقدرته على نظم الشعر بها ــ كما يروى ابن اياس ــ كان يتكلم العربية ، بل كان عارفا بالفصحى وشىء من نحوها وبلاغتها . وكان أديبا فصيحا ينظم الشعر العربى الفصيح .

وقد مدحه القاضى شهاب الدين أحمد بن فرفور ، قاضى دمشق حينذاك ، بقصيدة دالية خفيفة ، قال فيها :

للك الملك بالفتـح المبين مخـلد
لأنك بالنصر العـزيز مـؤيد
وأنت العزيز الطاهر الكامل الذى
هو الأشرف الغورى وهو المسدد
...... الخ .

فابتهج الغورى بقصيدة القاضى ، ورد عليه بقصيدة من بحرها ورويها فى نحو ثلاثة وثلاثين بيتا ، قال فيها :

أجاد لنا القاضى ابن فرفور أحمد
مديحـا به أثنى عليه وأحمـد
شـهاب لدين الله والشمس باهر
مناقبه مشـهورة ليس تجحـد
وقاضى قضـاة الشام جاء يزورنا
ويثبت دعـوى حبنـا ويؤكد
ويهـدى لنا منـه دعاء فمرحبا
به زائرا للأنس جـاء يجـدد
.... الخ [1] .

حبه للغناء والموسيقى :

وليس غريبا على الغورى حينئذ ، أن يكون مولعا بسماع الأغانى والموسيقى ، وهو الذى يحب الشعر ، وينظمه بالعربية والتركية . ونعتقد أن ذلك كان أحد عوامل نشاط هذه الفنون

(١) الكواكب السائرة جـ ١ : ترجمة قانصوه الغورى .

الجميلة فى زمانه . فقد كثر المغنون والمغنيات والموسيقيون على اختلاف آلاتهم ، حينذاك ، كثرة واضــحة . وكانت لهم بين الناس مكانة عظيمة .

وقد نزل الغورى فى ثانى يوم عيد الأضحى عام ٩١٥ هـ الى قبة يشــبك الدوادار بالمطرية ومد هناك موائد حافلة ، واستدعى اليه جماعة من المغنين وأرباب الآلات . ورسم لبعض الأمراء العشرات بأن يرقص ، ثم أمر له بمائة دينار .

ويذكر ابن اياس المؤرخ فى حوادث ذى القعدة عام ٩١٨ هـ أن الغورى سافر الى الفيوم ، ونصب له فى طريقه اليها وطاق عظيم ــ أى خيمة كبيرة ــ فى سفح الأهرام . واستصحب معه جماعة من المغنين والموسيقيين ، منهم محمــد بن عونية العواد وجلال السنطيرى ، والبوالقة ، وابن الليمونى ، وغيرهم .

ولما أقيم حفل زفاف الأمير قايتباى من الأمراء الطبلخانات ، فى المحرم عام ٩٢٢ هـ ، اجتمع فيه خمس وعشرون رئيسة من المغنيات .

وقال ابن اياس ان الناصرى محمد بن قجق نديم السلطان ، كان علامة فى ضرب الطنبورة عارفا بصنعة الأنغام . ولما مات فى رمضان عام ٩٢٠ هـ كانت جنازته حافلة مشى فيها أعيــان الناس .

ولوعه بالزينات ومظاهر الجمال والترف والتسلية :

وكان الغورى متأنقا فى ملبسه حسن البزة ذا ذوق فى تخير ملابسه وألوانها . يتضح لك ذلك مما يصفه به المؤرخ ابن اياس

عند ذكر مواكبه واستقبالاته . ويقول ابن اياس : « وكان يشد في وسطه حياصة ذهب ، عوضا عن الشد البعلبكى . وكان يلبس فى أصابعه الخواتم والياقوت الأحمر والفيروز والزمرد والماس وعين الهر . وكان مولعا بشم الرائحة الطيبة من المسك والعود والبخور . وكان ترفا فى مأكله ومشربه وملبسه » .

وكان الغورى حريصا على لبس الملابس البيضاء فى الصيف ، والصوفية فى الشتاء . وكان لذلك مواعيد محددة يندر أن تتخلف . وكان معنيا بالنظام والترتيب ، ينظم مواكبه بنفسه أحيانا ، ولوعا بنشر الزينات فى طريقها ، وقد يأمر باقامتها ويحدد أماكنها ومدتها .

ومما يدل على غرامه بمظاهر النظام والجمال ، عنايته البالغة بزخرفة مبانيه وتزويدها بالتحف الثمينة . واهتمامه بانشاء البساتين وغرس الغراس والأزهار . وقد أشرنا الى بستانه العظيم الذى أنشأه بميدان القلعة ، والى الفواكه والأزهار التى جلب غراسها من أجله من بلاد الشام . وقد أينعت فى عام ٩١٥ هـ وأخرجت الورد والياسمين والبان والزنبق والسوسن وغيرها . وكان من بينها الورد الأبيض الغريب التى نوهنا به .

قال ابن اياس : « فكان السلطان يوضع له — أى فى البستان — دكة كبيرة مطعمة بالعاج والأبنوس ، ويفرش فوقها مقعد مخمل بنطع ويجلس عليه . وتظله فروع الياسمين . وتقف حوله المماليك الحسان بأيديهم المذبات ينشون عليه . ويعلق فى الأشجار أقفاص فيها طيور مسموع ما بين هزارات ومطوق

وبلابل وشحارير وقمارى وفواخت وغير ذلك من طيور المسموع . ويطلق بين الأشجار دجاج حبش وبط صينى وحجل ، وغير ذلك من الطيور المختلفة . وتارة يجلس على البحرة التى طولها أربعون ذراعا ، وتمتلىء كل يوم من ماء النيل بسواقى تقّاله من المجراة ، تجرى ليلا ونهارا . فيجلس على سرير هناك فى غالب أيام الجمعة ، ولا يدخل عليه من الأمراء أحد الا من يختاره » .

ولم يكن البستان وحده هو الذى يقيم فيه للتسلية ، بل كثيرا ما نزل الى قصره بالمقياس ، أو الى قبة يشبك بالمطرية ، وهناك يقيم يوما أو أكثر ، يصحبه فيه من يشاء من الأمراء أو الجنود أو كبار رجال الدولة ، فيمدون الموائد الحافلة ويتسلون بضروب من التسلية .

وقد تفلّت فى أحد أيام جمادى الآخرة عام ٩١٨ هـ من بين الكيمان خلف القلعة الى قصر المقياس وضرب خياما لعدد كبير من أمرائه وجنوده دعاهم لقضاء يوم هناك . ومدّ لهم القاضى محمود بن أجا الحلبى كاتب السر موائد شهية أنفق عليها نحو سبعمائة دينار . واستضاف السلطان القضاة وعددا من أعيان القاهرة . واستقدم طائفة من القراء والوعاظ للقراءة والذكر . ثم أمر فانتشرت القناديل المضاءة فى قاعة المقياس والقصر وجامع المقياس ومئذنته ، وامتدت الزينات الى شاطىء الروضة ومصر . وكان السلطان قد عمر « غليونا » كبيرا أنفق عليه نحو عشرين ألف دينار . فسحب الى قبالة المقياس وأوقد به نحو

عشرة آلاف قنديل . وأمر السلطان باحراقة نفط أنفق عليها نحو مائة وسبعين دينارا . ودوت أصوات الموسيقى فى كل مكان الى ساعة متأخرة من الليل .

قال ابن اياس : واجتمع هناك خلق كثير للتفرج . وارتفع سعر المركب الى خمسة دنانير وأكثر ، وكانت الليلة فاتنة حتى جذبت البنت من خدرها ...

وكان للغورى ندماء يضحكونه فى بعض مجالسه بألعابهم وحركاتهم وفكاهاتهم . ومنهم « على باى » و « الشنقجى العجمى » الذى تبين فيما بعد أنه من جواسيس السلطان سليم .

وفى يوم عاشوراء عام ٩١٨ هـ نزل السلطان الى قصره بالمقياس عند الغروب ، ومعه بعض الأمراء والمباشرين ، فأقام مدة واستقدم اليه المغنين والآلاتية يطربونه . ورقص مضحكه « على باى » ومثّل عفريتا فى المحمل ، وسحب الأمير «كرتباى» والى القاهرة فرقّصه . ثم الأمير أقباى الطويل فالقاضى بركات ابن موسى ، وهكذا .. ونثر غلمان السلطان الورود والأزاهير والرياحين على الحاضرين ، ثم بسطت جفان الفاكهة والحلوى ..

وكانت المبالغة فى الزينة وتعاطى الأطعمة من طوابع حفلاته . وقد نزل الى ميدان القلعة فى ١٥ المحرم عام ٩١٥ هـ ونصبت له خيمة كبيرة بجوار البحرة وأمر بجمع الورد من أرجاء القاهرة فنثره على البحرة ، وأوقدت القناديل حتى أضاءت كالنهار . واستضاف السلطان القضاة والأمراء والمباشرين ولفيفا من أعيان القاهرة . ومد لهم مائدة حافلة . قال ابن اياس : « فكان فى هذا

السماط نحو أربعمائة صحن صينى . ووزعت المأمونية الحموية ، كل قطعة نصف رطل . وبسط من الأوز والدجاج والغنم ما لا حصر له . ومد من اللحوم الأخرى ألفا وخمسمائة رطل . ومن الدجاج ألف طير ، ومن الأوز خمسمائة طير ، ومن الغنم المعاليف خمسين معلوفا . ومن الرمسان الرضع أربعين رميسا . حتى قيل انه أنفق على ذلك كله أكثر من ألف دينار . بما فى ذلك الحلوى والفاكهة والسكر وغيره » .

حبه للرحلة والرياضة :

وكان الغورى ، بالرغم من بلوغه سن الستين عند سلطنته ، مولعا بالرحلة والألعاب الرياضية والخروج للنزهة فى الأماكن الخلوية . وقد قام بعدة رحلات الى خارج القاهرة . وكان الغرض الرسمى منها التفتيش على المنشآت والعمائر والجسور ونحو ذلك . ولكن الملاحظ أنه كان يتأنق فى اعدادها واختيار المصاحبين له فيها ، وتجهيزها بكل ما تحتاج اليه من وسائل الراحة والترفيه ، مما جعلها أيضا رحلات رياضية للنزهة والتسلية .

وقد رحل الى الأهرام والفيوم عام ٩١٨ هـ . والى العكرشا والجيزة وانبابة والسويس . ورحل الى الاسكندرية ورشيد .

ولما قام برحلته الى الأهرام والفيوم نزل من القلعة وأمامه مجموعة كبيرة من الخيول بسروج ذهبية وكنابيش ومعه الأمير طومان باى الدوادار ، وغيره من الأمراء الخاصكية

والسلاحدارية ، وكان السلطان يلبس ثوبا صـوفيا فستقى اللون ، وعلى رأسه تخفيفة ملساء .

واتجه الى الأهرام حيث نصب له بسفحه خيمة أقام بهـا عدة أيام يطربه المغنون ابن عونيـة والسنطيرى والبـوالقة وابن الليمـونى وغيرهم . ثم رحل الى الفيـوم وكشف على جسورها وأمر باصلاحها ثم عاد فأقام بالأهرام يومين فى أنس وسمر وسماع . وعاد الى القلعة فى موكب حافل .

وأبرز ما كان يزاوله بنفسه من الألعاب الرياضية ، الكرة ، وكان يتبارى فى ضربها مع الأمراء وهم يركبون الخيل ، بمضارب خاصة . وكانت هذه هى رياضته المحببة ، وكان لها موسم محدد فى السنة يبدأ عادة فى شهر بشنس ويستمر نحو شهرين ، ثم يختم باحتفال عظيم .

وكان يشجع ألعاب الفروسية والمهارة ، ويحب استعراضها بين آن وآن . ومنها لعبة « القَبَق » وهى عبارة عن خشبة عالية تنتهى بدائرة من الخشب ، يصوب اللاعبون سهامهم الى جوفها [1] . ومنها ألعاب « الرمَّاحة » وهم فئة من الجند يبلغون أربعين ، يلبسون ملابس حمراء ، ويقومون بألعاب الفروسية بالرماح على خيولهم ، أمام المحمل فى يوم دورانه .

وكانت ألعاب الرماحة أمام المحمل ، أحـد تقاليد الدولة المملوكية . فأبطلت قبل سلطنة الغورى بأربعين عاما . فلما ولى

---

(١) هامش سلوك المقريزى جـ ١ ص ٥١٨

أمر باعادتها ، واهتم بالرماحة اهتماما خاصا وشجعهم تشجيعا عظيما وأنفق عليهم بسخاء وخصص لهم المدربين وبنى لهم صواريخ مياه خاصة بهم بميدان القلعة ، حيث كانوا يقومون بتدريباتهم . وكثيرا ما استقدمهم فى مناسبات كثيرة ، ولا سيما عند وجود ضيوف لديه من الخارج أو سفراء ، فيقومون بألعابهم للتسلية والاعلان أيضا .

وفى المناسبات المذكورة كان يتسلى أيضا بمشاهدة رماة النشاب ، وصراع الكباش والثيران ، الى غير ذلك .

نزعته الدينية :

على الرغم مما سبق ، كانت له نزعة دينية شديدة ، وتمسك قوى بتعاليم الاسلام ، وحفاظ بارز على مظاهره وشعائره وفضلا عن أنه تقرب الى الله سبحانه وتعالى ، ببناء المساجد والمدارس ، وتقرير دروس الدين ، كان غيورا عليه وعلى الأخلاق غيرة تجلت فى مناسبات كثيرة . فكان مواظبا على الصلاة ، وعلى أداء صلاة الجمعة دون انقطاع ، فى مسجد القلعة غالبا ، فى حفل مناسب . وكان شديد الاهتمام باحياء المواسم والموالد والأعياد الدينية . واعداد ما تقضى به تقاليد الدولة وعرف الناس بشأنها ، ومن ذلك صدقات رمضان وخلع عيد الفطر وأضاحى العيد الأكبر ، وتوزيع ذلك على المستحقين .

وكانت صدقات رمضان يقوم باعدادها المحتسب والوزير وناظر الدولة ، وهى كميات من اللحم والخبز والدقيق والسكر

والغنم والبقر ، وما شابه ، وتحمل على رءوس الحمالين ويسيرون بها مزفوفة فى شوارع القاهرة ، والوزير والمحتسب على رأسها ، حتى يصلوا الى السلطان فى القلعة ، فيستعرضها ثم يخلع عليهم الخلع النفيسة .

ومن الطريف أنه كانت توزع على الناس مع لحم الأضاحى فى العيد الأكبر ، سكاكين من الزردخاناة . وكانت هذه عادة من عادات الدولة . ولكنها أبطلت فى عام ٩١٥ هـ .

واعتاد الغورى أن يستعرض نزلاء سجونه قبيل رمضان بقليل ، ثم يطلق سراح كثيرين منهم ، ويقوم بسداد ديون المدينين منهم .

وكذلك كان يجمع قراء القاهرة لتلاوة صحيح البخارى بجامع القلعة فى رمضان ، وفى نهايته تختم القراءة بالحوش السلطانى فى حفل دينى عظيم يشاهده السلطان وقضاته والعلماء وأعيان الفقهاء ، ويوزع على بعضهم الخلع والدنانير .

ولم تقتصر أعمال بره على شهر رمضان ، بل كان يبذلها فى كل مناسبة صالحة . وقد تجمّع على بابه فى يوم عاشوراء من عام ٩١٢ هـ عدد كبير من الفقراء المحتاجين ، فنزل اليهم بنفسه ، وأعطى كل واحد أشرفيا من الذهب ، حتى قيل انه بذل يومئذ نحو ثلاثة آلاف دينار .

وفى جمادى الآخرة عام ٩١٧ هـ زار مدرسته بالشرابشيين وأنعم على من بها من رجال الصوفية والبوابين والفراشين وأيتام

المكتب بنحو خمسمائة دينار . وأعطى كل شيخ من مشايخها عشرة دنانير أشرفية .

وفى جمادى الآخرة عام ٩١٩ هـ ، عاد الى القاهرة الأمير طومان باى الدوادار ، من الصعيد ومعه عدد كبير من مشايخ العربان ، وقد قيدهم فى الحـديد ، بسبب ما تأخر عليهم من الغلال . وقيل انه كان نحو سبعين ألف اردب من القمح . فلما عرضهم على السلطان ، سكت قليلا ثم قال : « أطلقوهم جميعا ، فقد تركت ما عليهم لوجه الله تعالى » .

وكان كثير الالتجاء الى الله سبحانه وتعالى ، وبخاصة فى أوقات الأزمات . وقد أشرنا الى أن البلاد منيت فى أيامه بعدد من الأوبئة والطواعين العامة . فكان الغورى يعجل فيتقرب الى الله سبحانه ، لكى يرفع عن البـلاد هذه الأوبئة ، ويجنبهـا ويلاتها ، وذلك بالغاء الضرائب الظالمة ، وبمصادرة أماكن الخمر والبوزة والفسوق ، وبالمناداة فى الناس باتباع أوامر الدين وتعاليمه وتأدية فروضه ، وبمنع الأمراء من المحاكمات والنظر فى قضايا المتخاصمين ، وترك ذلك لقضاة الشرع .

وقد مرض الغـورى فى عام ٩١٩ هـ بارتخاء فى جفونه ، حتى خشى على نفسه من العمى . فكان ـ على ما قيل ـ يكثر من الوقوف بشباك القبة الأشرفية ، ويتضرع الى الله تعالى ، ويقـول : « يا من لا يوصف بالظلم والجور ، ارحم عبـدك قانصوه الغورى . ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا

لنكونن من الخاسرين » . وكان حينـــذاك يكثر من ندائه :
« يا بصير يا بصير .. » ..

وكان اذا فاض النيل ولم يبلغ حد الوفاء فى ميعاده ، أو زاد زيادة ضارة ، اتجه الى الله سبحانه يدعوه أن يمنّ بالوفاء أو الهبوط . ويجمع قضاة الشرع وقراء القاهرة لقراءة القرآن .

وقد حكى ابن اياس أنه فى عام ٩١٥ هـ زاد النيل فى شهر هاتور ثمانية أصابع ، — أى فى غير موعده — فتضرر الناس من ذلك . فرسم السلطان للقضاة الأربعة بأن يتوجهوا الى المقياس ويدعوا الله فى هبوطه . فتوجهوا وقضوا ليلتهم بالمقيـــاس ، وقرئت ختمة شريفة ، ومدت أسمطة حافلة . فهبط النيل فى تلك الليلة نحو نصف ذراع ...

هذا ، ومن مظاهر تعصبه للدين وآدابه ، أن أحد خطباء المساجد ، واسمه « عمر بن علاء الدين النقيب الحنفى » ، صدر منه فى جمادى الأولى عام ٩١٣ هـ ، كلام فاحش فى حق سيدنا ابراهيم عليه السلام ، لا يليق صدوره من رجل مسلم فضلا عن خطيب دينى .

فلما عُرف الأمر استتابه بعض القضاة فحقن دمه بذلك . ثم علم السلطان بخبره ، فأخذه الغضب وملكه الحنق ، وأبى الا أن تضرب عنقه . وأمر بعقد مجلس فى حضرته شهده القضاة الأربعة وعدد من كبار العلماء حينذاك ، وكان من بينهم زكريا الأنصارى وابن أبى شريف ونور الدين المحلى . فقال الشيخ زكريا ان هذا المذنب اذا تاب الى الله واستغفره ، قبلت توبته

وحقن دمه . فوافقه على ذلك ابن أبى شريف . ووقعت مشادة عنيفة بين قاضى الحنفية عبد البر بن الشحنة والشيخ نور الدين المحلى ، وأخذوا فى قراءة أقوال العلماء فى مثل هذا الحادث . وبعد دراستها قرروا ايداع المذنب فى السجن .

تصديه للقضاء :

والواضح من سيرة الغورى أنه كان يجلس أحيانا بالحوش السلطانى للمحاكمات والنظر فى قضايا المتخاصمين ، على نمط مما كان يتبعه بعض أسلافه .

ولكنه لم يكن يزاول المحاكمات بانتظام واطراد . ولم يكن مجلسه فى الحكم مستكملا لأعضائه ، كما كان شأن مجالس القضاء عند أسلافه . اذ كان لا بد من حضور القضاة الأربعة وأمراء المئين ، وهم الأمراء المقدمون ويعرفون بأمراء المشورة. وكذلك كاتب السر وكتاب ديوانه .

ويؤخذ الغورى بهذا الصدد ، بما سجله عليه ابن اياس ، اذ قال : « ان الغورى كان يهرب من المحاكمات كما يهرب الصغير من الكتّاب . ولم تكن محاكماته على وجه مرضٍ . وأنه كان يكسل عن علامة المراسيم ، فتعطل بسبب ذلك مصالح الناس . ولهذا كانت العلامة القديمة تشترى بأشرفى ، وتلصق على المرسوم ، لينفذ وتقضى به الحوائج » .

وعبارة ابن اياس تحتاج الى فحص ومعاودة النظر . فهل كان الغورى « يهرب منها » أم كان « يتركها » لكى يليها قضاة الشرع ، وبخاصة لأنهم أقدر عليها منه وأوسع بها علما ؟.

وتتساءل عن العلامة القديمة ، كيف كانت تشترى وممن تشترى ؟ وكيف كانت تلصق على المرسوم ؟ ومن الذى يتولى الصاقها ؟ هل رجل من المسئولين ؟ أم من أصحاب الحوائج ؟ كل هذه أسئلة تحتاج الى أجوبة واضحة . والمعروف فى العصر المملوكى أن « العلامة » هى عبارة خاصة أو كلمة خاصة يختارها السلطان ، وتوضع فى أعلى مراسيمه ومكاتباته ، لتدل عليه فهى بمثابة « اشارة » أو « رمز » اليه فهل أطلقت « العلامة» على « التوقيع والامضاء » فى عصر الغورى ، وأصبح لها مفهوم جديد ؟ قد يكون .

ومهما يكن من شيء . فانصافا للغورى واحقاقا للحق ، نذكر أنه كان يقف فى بعض القضايا الهامة ، ذات المساس بالدين والأخلاق العامة ، مواقف تشرفه دلل فيها على حفاظه الشديد وغيرته الكاملة على تعاليم الدين وآدابه .

ويتصدى للحكم فيها بمحض رأيه ، وبما يشعر أنه يتفق وجلال الشريعة ، ويحكم حكما قاسيا قد لا يتفق مع آراء قضاة الشرع ، ويكون فيه غلو ومبالغة فى التقدير . ولكن مصدر ذلك كله فى نفسه غيرته الشديدة على الدين وحرصه على ما ينبغى له من مظاهر .

نذكر ذلك بمناسبه موقفه — مثلا — من حادثة وقعت فى شوال عام ٩١٩ هـ ، شغلت أذهان الناس ونفوسهم نحو شهرين . وتلخص فى أن أحد نواب الحكم من الشافعية واسمه « نور الدين المشالى » كانت له صلة محرمة بزوجة أحد نواب

الحكم من الحنفيــة واسمه « غرس الدين خليــل » . فضبطا يرتكبان الجريمة ، وقبض عليهما حاجب الحجاب . فاعترفا . وكتب « المشالى » اعترافا على نفسه بخطه بارتكابها ، وأودعهما فى السجن .

وبلغ النبأ مسامع الغورى ، فاستشاط غضبا ، لأن الجانى كان من رجال القضاء . وقدموه الى أحد نواب الحكم ، فحكم عليه بالرجم ، ووافق قاضى القضاة على هذا الحكم . وعوّل الغورى على رجم الزانيين أخذا باعترافهما حتى يموتا ، فيكون ذلك عبرة للمعتبر .

وقبيل تنفيذ الحكم سعى « شمس الدين الزنكلونى » أحد نواب الحكم من الشافعية ، وصديق الجانى ، حتى عدل الجانى عن اعترافه . واستفتى هو القضاة والعلماء فى عدول المعترف عن اعترافه ، فى هذه الحالة . فأفتوه بأنه يجوز له العدول عنه ، وأنه حينئذ لا يعاقب .

وعلم السلطان فاتقد غضبه ، وتعجب كيف أن زانيا معترفا بجريمته بخطه ، يباح له العدول عن اعترافه . وكأنه فهم أن هذا تحايل على الشرع ، حتى يفلت الجانى من العقوبة .

وعلى هذا عقد مجلسا جمع فيه قضاة الشرع الأربعة ، وكبار العلماء ، وكان من بينهم الشيخان الكبيران زكريا الأنصارى ، وابن أبى شريف . وناقشهم فى المسألة . فأصروا جميعا على أن الزانى له حق الرجوع عن اعترافه ، وحينئذ لا يُحد . وأن هذا هو رأى الشرع .

فثار الغـوري عليهم ثورة جارفة ، وأخـذ فى تسفيههم وتوبيخهم . وأعلن أنه سيشنق الجانيين رغم أنف القضاة وأنه هو ولى الأمر الشرعى ، الذى ينتهى الرأى اليه أخيرا . فحذروه من أنه اذا شنقهما تلزمه ديتهما .. فلم يبال بهذا التحذير .

وفعلا أمر بشنق الجانيين مصلوبين بحبل واحـد ، وجها لوجه ، وعلى باب القاضى برهان الدين بن أبى شريف ، نكاية فيه . وضرب « شمس الدين الزنكلونى » نحو ألف عصا ، ونفـاه هو وأولاده الى الواحات ... فمـات الزنكلونى فى الطريق .

وأمعن الغـورى فى الكيد للقضاة ، فعـزلهم جميعا من مناصبهم ، وظلت البلاد بغير قضاة نحو خمسـة أيام ، حتى اختار قضاة جددا .

وكانت هذه القضـية مثاراً لأحاديث الناس وشـائعاتهم وتندراتهم ، حتى قال شاعرهم :

لقـد صلب السلطان من كان زانيا
وأظهـر فى أحكامه مسلكا صـعبا
فقلت لأرباب الفسـوق تأدبوا
فحد الزنى قد صار فى عصرنا صلبا

ترجمة الشاهنامة :

هذا . ومن الأعمال الأدبية العظيمة التى قام بها الغورى ، ترجمة الشاهنامة الفارسية للفردوسى الى اللغة التركية . وقد أمر الشاعر الشريفى بالقيام بها ، فأتمها فى نحو عشر سنين .

وترجمة الشاهنامة عمل أدبى ممتاز . وكنا نود لو كانت ترجمتها الى اللغة العربية . اذن لكان حدثا من الأحداث الجليلة فى زمانه . ومن يدرى ؟ فربما كانت ترجمتها الى العربية فاتحة عظيمة القيمة ، لقيام حركة ترجمة واسعة ، الى العربية . ولأضفى ذلك على الحركة العلمية والأدبية فى عصره رونقا وأهمية .

وقد ذكر المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام ، خبر ترجمة الشاهنامة فى كتابه « مجالس السلطان الغورى » . وذكر أنه عثر على النسخة الأم لشاهنامة الغورى التركية ، فى احدى دور الكتب باستنبول عام ١٣٥٦ هـ ـ ١٩٣٣ م وهى فى مجلد واحد ضخم ، يحتوى على جملة من الصـــور الملونة الجميلة . وهى النسخة الأولى التى كتبها المترجم بيده فى القاهرة ، وقدمها الى السلطان الغورى . وقد ضمنها أحاديث كثيرة وقصصا وروايات عن الغورى وأوصافه ومحاسنه ومجالسه ومنشآته وغير ذلك [١] .

***

وبعد ، فان محاسن الغورى كثيرة ، ومنها وفاؤه لاخوانه ورجاله الذين أخلصوا له ، فما نوى لهم غدرا ، ولا أضمر لهم حقدا ، ولا دبر لهم مؤامرة ، كما كان يفعل بعض أسلافه وكان مأمون الجانب فيما يتصل بهم ، شديد الحدب عليهم ، عطوفا .

---

(١) مقدمة « مجالس السلطان الغورى » .

ولما مات الأتابكى «قرقماس بن ولى الدين» عام ٩١٦ هـ ، وكان من أشد الأمراء اخلاصا لسلطانه ، وأرعاهم لعمله ، اشترك الغورى فى الصلاة عليه ، وقبّل نعشه وبكى عليه بكاء مرا . ثم حمل نعشه وسار به خطوات . ثم تناوله منه الأمراء .

وقد أجمل ابن اياس الحديث عن محاسن الغورى فقال :

« وأما ما عد من محاسنه ، فانه كان رضى الخلق يملك نفسه عند الغضب . وليس له بادرة بحدة عند قوة خلقه . ومنها أنه كان له اعتقاد زائد فى الصالحين والفقراء . ومنها أنه كان يعرف مقادير الناس على قدر طبقاتهم . ومنها أنه كان ماسك اللسان عن السب للناس فى شدة غضبه . ومنها أنه كان يفهم الشعر ويحب سماع الآلات والغناء . وله نظم على اللغة التركية . وكان مغرما بقراءة التواريخ والسير ودواوين الأشعار . وكان قريبا من الناس ، يحب المزاح والمجون فى مجلسه ، غير كثيف الطبع فى ذاته . وكان عنده لين جانب ورياضة ، بخلاف طبع الأتراك ، ولم يكن عنده شمم ولا تكبر نفس »[1] .

***

غير أن الغورى بجوار ما بدا له من المحاسن ، له مساوىء كثيرة يؤاخذ بها ، حتى ان ابن اياس المؤرخ يقول بالنص :

---

(١) يقصد ابن اياس من الشمم الكبرياء .

« وكان للغورى محاسن ومساوىء . لكن مساوئه أكثر من محاسنه » .

وأهم ما يؤاخذ به الغــورى جنوحه الى لون من الحياة اللاهية المسرفة . ولا بأس بالسلطان اذا جنح الى السلم وجنَّب بلاده ويلات الحرب ، وأخذ بنصيب من الترف الضرورى الذى يدعو اليه مقام سلطنته عند المناسبات . ولكن الغورى فى الوقت الذى لم يلتفت فيه التفاتا صادقا الى تنظيم جنوده وتدريبهم ورأب الصــدع بين صفوفهم والانفــاق عليهم بسخاء تتطلبه خطورة موقف البلاد ، ولا سيما موقفها من العثمانيين ، اتجه الى هذه الحياة المترفة ، وكان سخيا فى الانفاق على وسائلها وأدواتها ــ كما وصفنا فيما مر ــ ســواء أكان انفاقه على منشآته الخاصة وقصوره وبساتينه ، أو مواكبه واحتفالاته ، أو نزهه ورحلاته ، وغير ذلك . وقد كان فى أول سلطنته محتاجا الى المال ، ثم أثرت خزائنه ، وأفعمت جيوبه . ولم يستطع أن يكف عنه ثورات الجنود ، وينظم صرف مرتباتهم فى مواعيدها ، ويقضى على أسباب فتنهم باعطائهم مقرراتهم . فكان ــ على ما نرى ــ شحيحا عليهم شــحا تقضى الظــروف بعكســه ، فاجترءوا عليه واستهانوا بواجبهم .

وقد جمــع كثيرا من أمواله من فــرض الضرائب الظالمة والمصادرات الجائرة ، مع العجلة الى سوء الظن ، والمبادرة الى العقوبة ، والمبالغة فى الايذاء . لقد أباح الغورى لنفسه أن يصل الى المال بأى طريق مستطاع . فسمح بالغش فى العملة ، وامتدت

يده الى أخذ الرشوة من طالب الوظيفة ، حتى استهان بعض رجال القضاء ، فسعوا الى مناصبهم برشوة السلطان ورشوة وسطائه . وأرخى الحبل لأمراء دولته حتى تدخلوا فى القضاء وتصدوا للفصل فى قضاياه ، لقاء الأجور الباهظة أو الرشوة المغرية . الى غير ذلك .

ولو أننا أمعنا النظر فى هذه المساوىء لوجدنا أنها تجتمع كلها فى كلمة واحدة ، وهى عدم الرحمة بالرعية ، وهى أمانة الله فى يد السلطان .

ولكننا أمام هذه المساوىء التى تلمس منا شغاف القلوب ، لا نستطيع أن ننسى ــ فى مقام التاريخ ــ محاسن هذا السلطان ، وبخاصة اذا قدرنا الظروف والملابسات التى صاحبت سلطنته من أول أيامها . لقد كان شديد الغيرة على بلاد سلطنته ، سريع الغضب اذا اعتدى على أطرافها معتد . وعاش فى جملة حياته مدافعا عنها ، ما دامت مفاجآت الحوادث تدعوه الى الدفاع . ولو قد صفت له نفوس من حوله ، وأخلصوا فى العمل معه لبلادهم ، لغير بهم وجه التاريخ ــ كما قلنا ــ .

لقد سار بنفسه على رأس حملتــه الكبرى الى حلب . وشهد معركة مرج دابق حتى عاين النصر . ثم لاحقته الخيانة والغدر وفرقت الدسيســة بين صــفوفه ، وفر رجاله لواذا لا يلوون على شيء . أما هو فظل واقفا كعلمه وسط المعركة ، حتى صرع وهو يشهد خاتمته . وبقيت سيرته عظة بالغة وعبره لمن يعتبر . والله أعلم .

من مراجع البحث

١ ـ اغاثة الأمة للمقريزى .

٢ ـ بدائع الزهور لابن اياس .

٣ ـ بغداد مدينة السلام لطه الراوى .

٤ ـ تاريخ آل عثمان ليوسف آصاف .

٥ ـ تاريخ دولة المماليك لوليم موير .

٦ ـ تاريخ السلطان سليم خان مع قانصوه الغورى لابن زنبل الرمال .

٧ ـ سلوك المقريزى . وهامشه للدكتور محمد مصطفى زيادة .

٨ ـ شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى .

٩ ـ عصر سلاطين المماليك لمحمود رزق سليم .

١٠ ـ الفتوحات العثمانية للديار المصرية للصديقى .

١١ ـ الكواكب السائرة لنجم الدين الغزى .

١٢ ـ كوكب الروضة للجلال السيوطى .

١٣ ـ مجالس السلطان الغورى للمرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام .

١٤ ـ مصر فى عصر دولة الجراكسة للدكتور ابراهيم على طرخان .

١٥ ـ مصر فى العصور الوسطى للدكتور على ابراهيم حسن

١٦ ـ مفاكهة الخلان لشمس الدين بن طولون .

فهرست

صفحة

المكتبة الثقافية

تحقق اشتراكية الثقافة

تصدرها الدار المصرية للتأليف والترجمة

توزيع مكتبة مصر ـ ٣ شارع كامل صدقى

صدر منها (ابتداء من أول يوليو ١٩٦٥) :

١٣٦ـ المدارس الفلسفية . . . . للدكتور احمد فؤاد الاهوانى
١٣٧ـ الرسول . . . . . . للدكتور عبد الحليم محمود
١٣٨ـ خيال الظل . . . . . . للدكتور عبد الحميد يونس
١٣٩ـ الحشرات والانسان . . . . للدكتور عفيفى محمود
١٤٠ـ حركة السكان . . . . . للدكتور محمد السيد غلاب
١٤١ـ الاراضى والمجتمع . . . . . للدكتور محمود يوسف الشواربى
١٤٢ـ الوان من احياء البحر . . . . للدكتور محمد رشاد الطوبى
١٤٣ـ العرب فى أوربا . . . . . للدكتور على حسنى الخربوطلى
١٤٤ـ فلسفة اللغة العربية . . . . للدكتور عثمان أمين
١٤٥ـ الانسان وصحته النفسية . . . للدكتور مصطفى فهمى
١٤٦ـ شيوخ العصر فى الاندلس . . . للدكتور حسين مؤنس
١٤٧ـ قصة الانسان القديم وحضارته للدكتور أنور عبد العليم
١٤٨ـ أسرار العبادات فى الاسلام . . للدكتور عبد الحليم محمود
١٤٩ـ أضواء على الفكر العربى الاسلامى للاستاذ أنور الجندى
١٥٠ـ شعر الهجر . . . . . . للدكتور كمال نشأت
١٥١ـ الفيروس والحياة . . . . . للدكتور عبد المحسن صالح
١٥٢ـ الأخلاق والمجتمع . . . . . للدكتور زكريا ابراهيم
١٥٣ـ نظرات فى فكر العقاد . . . للدكتور عثمان أمين

أعلام العرب

تصدرها الدار المصرية للتاليف والترجمة

توزيع مكتبة مصر ـ ٣ شارع كامل صدقى

تظهر تباعاً كل يوم ٧ من كل شهر

ظهر منها :

١	ـ محمد عبده	الاستاذ عباس محمود العقاد
٢	ـ المعتمد بن عباد	الاستاذ على ادهم
٣	ـ جابر بن حيان	الدكتور زكى نجيب محمود
٤	ـ عبد الرحمن بن خلدون . .	الدكتور على عبد الواحد وافى
٥	ـ ابن تيميـــة	الدكتور محمد يوسف موسى
٦	ـ معـاوية	الاستاذ ابراهيم الابيارى
٧	ـ سيد درويش	الدكتور محمود احمد الحفنى
٨	ـ عبد القاهر الجرجانى . .	الدكتور احمد احمد بدوى
٩	ـ عبد الله النديم . . .	الدكتور على الحديدى
١٠	ـ عبد الملك بن مروان . .	الدكتور ضياء الدين الريس
١١	ـ مالك	الاستاذ امين الخولى
١٢	ـ القلقشندى	الدكتور عبد اللطيف حمزة
١٣	ـ الطبرى	الدكتور احمد محمد الحوفى
١٤	ـ الظاهر بيبرس	الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
١٥	ـ ابن الفارض	الدكتور محمد مصطفى حلمى
١٦	ـ المختـــار الثقفى . . .	الدكتور على حسنى الخربوطلى

١٧ ـ الوليد بن عبد الملك	الأستاذ أحمد الشرباصي
١٨ ـ الاصمعى	الدكتور أحمد كمال زكى
١٩ ـ زكريا احمد	الأستاذ صبرى أبو المجد
٢٠ ـ قاسم امين	الدكتور ماهر حسن فهمى
٢١ ـ شكيب ارسلان	الدكتورة سيدة اسماعيل الكاشف
٢٢ ـ ابن قتيبة	الدكتور عبد الحميد سند الجندى
٢٣ ـ ابو هريرة	الأستاذ محمد عجاج الخطيب
٢٤ ـ عبد العزيز البشرى	الدكتور جمال الدين الرمادى
٢٥ ـ الخنساء	الدكتور محمد جابر عبد العال الحينى
٢٦ ـ الصاحب بن عباد	الدكتور بدوى طبانة
٢٨ ـ الناصر محمد بن قلاوون	الدكتور محمد عبد العزيز مرزوق
٢٩ ـ احمد زكى	الأستاذ أنور الجندى
٣٠ ـ حسان بن ثابت	الدكتور سيد حنفى حسنين
٣١ ـ المثنى بن حارثة الشيبانى	العقيد محمد فرج
٣٢ ـ مظفر الدين كوكبورى	الأستاذ عبد القادر أحمد طليمات
٣٣ ـ رشيد رضا الإمام المجاهد	الدكتور ابراهيم احمد العدوى
٣٤ ـ اسحاق الموصلى	الدكتور محمود احمد الحفنى
٣٥ ـ ابو حيان التوحيدى	الدكتور زكريا ابراهيم
٣٦ ـ ابن المعتز العباسى	الدكتور أحمد كمال زكى
٣٧ ـ الزهاوى	الدكتور ماهر حسن فهمى
٣٨ ـ ابو العلاء المعرى	الدكتورة عائشة عبد الرحمن
٣٩ ـ احمد لطفى السيد	الدكتور حسين فوزى النجار
٤٠ ـ الجويلى	الدكتورة فوقية حسين محمود
٤١ ـ الناصر صلاح الدين	الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور
٤٢ ـ عبد الله فكرى	الأستاذ محمد عبد الغنى حسن
٤٣ ـ عبد الله بن الزبير	الدكتور على حسنى الخربوطلى
٤٤ ـ عبد العزيز جاويش	الأستاذ أنور الجندى
٤٥ ـ ابن رشيق	الأستاذ عبد الرءوف مخلوف
٤٦ ـ محمد بن عبد الملك الزيات	الأستاذ محمود الهجرسى

٤٧ ـ حفني ناصف . . . . الأستاذ محمود غنيم
٤٨ ـ احمد بن طولون . . . للدكتورة سيدة اسماعيل كاشف
٤٩ ـ محمـود حمـدى الفلكى . للأستاذ احمد سعيد الدمرداش
٥٠ ـ احمد فارس الشـدياق . للأستاذ محمد عبد الغنى حسن
٥١ ـ المهـدى العباسى . . . للدكتور على حسنى الخربوطلى

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقى